

دكتور شوقى ضيف

# الحب العذرى عند العرب



دار المعارف

بطاقة التهرمة  
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

ضيف ، شوكى ، ١٩١٠ - ٢٠٠٥  
الحب العثرى عند العرب / شوكى ضيوف  
ط ١ - القاهرة: دار المعارف ، ٢٠٠٩ .  
١٤٨ ص ، ٣٠٠ سم  
تمك : ٢ - ٧٣٦٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .  
١ - القصص العربية العطفية - تاريخ ونقد .  
أ - العنوان

ديوى ٨١٣.٠٨٥٩

رقم الايداع ٢٠٠٩ / ١٩١٠٤ ١ / ٢٠٠٩ / ٢٤

تصميم الغلاف  
عزيزة مختار

تنفيذ المتن والغلاف  
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات  
دار المعارف

الحب العذراء  
عند العرب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

دفعنى إلى جمع هذا القصص المتصل بأحاديث الحب والصبابة من كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب العربى أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا، غير مفرقين فى هذا الإقبال بين الجيد منه الذى يسمو بالأحاسيس والشاعر والردئ الذى تطغى فيه الغرائز وتجمع الأهواء والعواطف فى غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور فى قراءته للنوع الأخير، بحكم رغبته فى الاطلاع، ولما فيه من غرابة وشذوذ كالشذوذ الذى يقرءونه فى قصص الجرائم والجنائيات. وهم بذلك يقرءونه لهوا وقطعا لبعض أوقات الفراغ لا التماسا لمثل أعلى فى الحب ولا لغذاء روحى فيه يرتفع بهم عن صغائر الحياة. وإيماننا منى بحاجتهم إلى ما يقدم هذا الغذاء الرفيع لهم فى يسر وبساطة رأيت أن أعرض عليهم طائفة من قصص الحب العذرى عند أسلافنا الذى يتحول فى بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقى عاشه العرب فى عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم

الحب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم ليموتون شهداء في سبيله، وفيه تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذرى النقى العفيف فى لغة ناصعة أروع ما يكون النضوع، ليس فيها أى إسفاف، بل فيها القوة والجزالة والمتانة والرصانة وهذا الجمال اللفظى الذى يحدث لذة محققة فى نفس القارئ. وأحاديثه لا تجرى نثرا خالسا ولا شعرا خالسا، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأسماع حين تصغى إليها كما تمتع القلوب والأفئدة. وإنى لأرجو مخلصا أن يجد فيها شباب القصاصين بيننا أمثلة يحتذونها فى أساليبهم الفثرية، كما يجد فيها شباب الشعراء أمثلة ونماذج أخرى تلهمهم التعمق فى تصوير دقائق الحب وعواطفه وأهوائه دون التورط فى غرائز الجسد وأدرانه.

وإنى لشديد الأمل فى أن يغرى هذا القصص ومثله الخيرة العليا بعض شبابنا إلى تمثله والمعيشة فيه معيشة تدفعهم إلى إعادة كتابته فى قصص حديث، لا يقل عنه إمتاعا ولا جمالا، قصص يعتمد اعتمادا على عناصر الحب العذرى، مجسدا لها فى معانٍ وخواطر، وأحيانا فى ضروب من الحوار، لم تكن تخطر جميعا لأسلافنا على بال. والله أسأل الهدى والتوفيق وأن يهينى لنا جميعا من أمرنا رشدا.

## شوقى ضيف

# الحب

## طبيعة الحب

لأفلاطون في الحب محاورة مشهورة تسمى المأدبة، أجرى فيها الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة. والمحاورة في مجموعها تصور مذهب سقراط في الحب، وإن عبّر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطوابع شخصيته الخاصة.

وقد بدأ أول المتحاورين، فقال: إن الحب أقدم الآلهة وأفضلها، فهو الذى يبعث فى الإنسان الإحساس بالشرف وينمى فيه الإيثار وروح التضحية. وفرّق ثانى المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنى وضع يلبى النزعات الجنسية، وهو حب النساء والحب الشاذ للغلمان، ونوع نبيل شريف يخلو خلوا تاما من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الحب النقى البرئ ذلك الحب الذى يرتفع عن الصغائر ويتنزه عن الدنيا والذى يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة.

وواضح أن هذا الحب الروحى السامى هو الحب الذى ينشأ بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وإن كان الباحثون قديما وحديثا لم يتنبّهوا إلى ذلك، وظنوا ظنا فائلا أن المحاورة ترفع من الحب الشاذ، حب الشاب للشاب، مع أنها تندد فى غير موضع وبصراحة صريحة بهذا الحب، وتشن عليه حربا شعواء. وفى رأينا أن المحاورة جميعها دفاع عن سقراط وتعلق شباب أثينا بآرائه وكلفهم بحواره الذى كان يملأ قلوبهم له حبا وحنانا، حتى زعموا أنه

يفسدهم وأنه يَزْدَرى قوانين الخُلُق والعرف والدين، وحوكم محاكمة ظالمة أودت به وقضت على حياته. وقد ختمت المحاوراة بدفاع قوى حار عنه، ألقاه تلميذه أَلْقِيَادَس، وقد صور فيه الحب العارم بينه وبين تلاميذه، وهو حب نقى برئى معن فى النقاء والبراءة، إذ كان سقراط نبيل النفس صافى الطبع كريم الخلق وكان الشباب يفتنون به فتوناً.

ويطنب ثالث المتحاورين - وكان طبيباً - فى التفرقة بين الحب الروحى الشريف والحب الحسى الوضعى، ويجعل من هذه التفرقة مبدأ عاما لا يطبق فى الحياة الإنسانية وحدها، بل يطبق فى كل الأعمال والفنون، ويقول: إن الحب أصل من أصول الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواسع، ويجعله منبع كل سعادة وكل خير. أما رابع المتحاورين وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدي المشهور فيسوق حديثه فى قصة خيالية فكهة، إذ يزعم أن الكائنات البشرية لم تكن فى أصل فطرتها كما هى اليوم: ذكرا وأنثى، بل كانت ذكرا، وأنثى، وخنثى تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدورا على هيئة كرة، وله أربع أيد وأربع أرجل يمشى عليها جميعا، وله أربع آذان ووجهان، وهكذا تزدوج فيه بقية الأعضاء. وركب الغرور هذه الكائنات، فنارت فى وجه الآلهة، وغضب زيس الإله الأكبر، فشطر كل فرد فيها شطرين عقابا ونكالا لها، ومضت هذه الأشرار يبحث كل منها عن شطره رغبة فى الاتحاد به كما كان الشأن فى أصل النشأة، وهذا هو سبب الحب، فهو فى حقيقته شوق وتعطش إلى استرجاع السعادة المفقودة. ويتحدث المتحاور الخامس - وكان سوفسطائيا - قيصطنع ألفاظ السوفسطائيين الخلابة، ويقول: إن غاية الحب الجمال، ويضفى عليها أروع الخصال والفضائل، ويجعل زينته العفة وكبح النفس عن الشهوات، وثمرته الأُنس والألفة والصدقة.

ويتكلم سقراط، فتشرئب إليه الأعناق وتصغى الآذان والقلوب، ويستهل كلامه بالثناء على ما سمعه من المتحاورين، ثم يسألهم - على طريقته - عن بعض ما عرضوا له من وجوه القول، ولا يلبث أن يروى لهم حديثاً عن الحب سمعه من امرأة تسمى ديوتيميا، وهنا نرى أفلاطون يتدخل، فيصف على لسان هذه المرأة الحب الأفلاطوني الذي ينسب إليه، وهو حب علوى أشبه ما يكون بتجربة المتصوفة عندنا، إذ يرتبط بنظريته المعروفة في المثل وما كان يعتقد من أن أفراد كل نوع في الموجودات الحسية والمدرجات العقلية قد فاض عن حقيقة مثالية كلية مجردة، لها وجودها المنطلق، وكل فرد من أفرادها يقترب منها ويبتعد بنسبة ما يستوفى من خصالها وكمالها.

وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هي مثالها المنطلق الذي انفصلت عنه، وهي لا تزال تحن إليه، فإذا رأته ظلالة فى شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب. وهو عند أفلاطون فى درجات، أدناها الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان شيئاً من الخلود عن طريق ذريته، إذ يحل أولاده محله، فيخلد وجوده الفانى إلى حين. ويلى ذلك الحب الجنسى حب روحى، يعشق فيه المحب نفس المحبوب، وهو أرفع من حب الجسد وأكثر خلوداً، إذ يلقن فيه المحب محبوبه خصال الفضيلة والحكمة، تلك الخصال التى يغرسها المحبوب بدوره فى معشوقه، وبذلك تكون لهذا الحب الروحى ذرية كذرية الحب الجسدى المادى، إلا إنها أكثر منها قيمة وجمالاً. ولا نرتاب فى أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحى العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وهو يجعلهم محبوبين له، يشيعون أفكاره وتعاليمه فى تلاميذهم أو معشوقيه، فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها جمال ذرية الحب الجسدى، إذ شتان بين ذرية الدم والجسد وذرية الروح والعلاقة الروحية.

وفوق هذا الحب بدرجة أو درجات الحب الأفلاطوني المثالي الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسى ويرتفع عن العالم الروحى المنقيد بالأشخاص والناس إلى عالم الجمال المطلق أو عالم المثال. وهذا الحب عند أفلاطون هو غاية الغايات للفيلسوف أو محب الحكمة، وهو الغاية التى ليس وراءها غاية، والفيلسوف لا يصل إلى هذه الغاية إلا بعد مجاهدات يعانىها، إذ لا بد له أن يتجاوز الفرد أو الشخص الذى يتذكر بجسده أو بروحه عالم المثال إلى هذا العالم نفسه، فيتأمل مثله الأعلى فيه، ويحب محبة تملك عليه نفسه، حتى لا يستطيع عنه حولا، أو حتى يستغرق فيه استغراقا خالصا، وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفية عندنا فى حب الذات الإلهية وكمالها المطلق.

وتنتهى المحاوراة بحديث ألقبيداس عن سقراط، وهو يعترف فى حديثه بأن لسانه يقصر عن تصوير ما أصاب به الشباب الأثينى من فتون بحكمته المضيئة المشرقة، وهى حكمة قوامها العقل فى أبدع صوره والخير فى أكرم مظاهره والحب كأروع ما يكون الحب بين الأستاذ وتلاميذه. وليس ذلك فحسب، فقد كان مثالا للعة والشجاعة وأبلى بلاء مشكورا فى بعض حروب قومه. ومن أجل ذلك كله صبا إليه الشباب فى أثينا وكلفوا به أشد الكلف، وكبرت كلمة يقولها خصومه إنه أفسدهم، إذ كان نموذجا أعلى للمواطن الصالح والفيلسوف الحق. وهذا إنما هو سطور أخيرة فى الدفاع عن سقراط. والمحاوراة كلها فى رأينا دفاع عنه وعن تعلق تلاميذه المشروع به، وإن كان أفلاطون قد ضمنها الحديث عن الحب الجسدى الوضع وعن حبه الأفلاطونى الرفيع.

ومهما يكن فقد صورت الأدبية الحب بجميع صوره المادية والمعنوية تصورا رائعا، ولا نبالغ إذا قلنا إن جُل ما قاله مفكرو العرب ومتفلسفتهم

فى الحب نجده صدى واضحا لما دار فى هذه المأدبة وما قاله أفلاطون فى «الجمهورية» عن صورته الثلاثة: الجسدى والروحى والمثالى، وأنه يحدث لمشاكلة بين اثنين فى أصل الوجود البشرى. ويؤثر أن جماعة من المتكلمين وأهل الآراء واليحل اجتمعوا يوما بمجلس يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد، فطلب إليهم أن يتحدثوا فى الحب وطبيعته وسببه، فقال على بن الهيثم: الحب ثمرة المشاكلة، وقال أحد الخوارج: إنه لا يكون إلا بازدواج النفسين وإمتزاج الشكلىين، وقال على بن منصور الشيعى: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والمجانسة فى التركيب، وقال أحد شيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة.

ويدور الزمن دورة وتلتقى بمحمد بن داود الظاهرى الذى ألف كتابا فى الحب باسم «الزهرة» ونراه فيه يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها أئتلف، وما تناكر منها اختلف»، ثم ينقل عن بعض المتفلسفة اليونانيين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها نصفين، فجعل فى كل جسد نصفاً، وكل جسد لى الجسد الذى فيه نصفه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة. والصلة واضحة بين هذه الفكرة وما جاء على لسان أريستوفان فى المأدبة.

ويدور الزمن دورة أخرى، فنلتقى بابن سينا الفيلسوف المعروف ونراه يفرد للعشق رسالة، يقول فيها إنه نزوح إلى الكمال المنبعث عن الكمال المحض، ويجعله نوعين: جسدى ينشأ عن القوة الشهوانية، وهو الذى يستعان به على حفظ النوع، وعقلى ينشأ من القوة النطقية لغرض القرب من المعشوق الأول. وهذا الحب الثانى يطابق الحب الأفلاطونى مطابقة بيّنة.

ونمضى مع الزمن، وإذا ابن حزم الأندلسى يؤلف كتابه «طوق الحمامة فى الألفة والألاف» وفيه يقول إن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخلقة فى أصل عنصرها الرفيع. وابن حزم يردد فكرة أفلاطون فى المثل، فالنفوس الإنسانية ترجع فى أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزعت أجزاءها فى نفوس الناس، ويقول إن هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب وتنفصل فيكون البغض. فسِرُّ الحب والبغض فى المخلوقات إنما هو فى الاتصال والانفصال بين النفوس، فالشكل إنما يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافى، والله عز وجل يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف آية ١٨٩) فجعل سبحانه وتعالى علة سكون الزوج إلى زوجته أنها منه. ولو كانت علة الحب جمال الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن شخص القبيح فى الصورة، وهو خلاف الواقع، ولو كانت العلة للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يوافقه فى الشيم وهو ما لا يشهد به أيضا الواقع. فوجب أن يكون الحب شيئا فى ذات النفس. فإن قيل إن هذا يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصا بادله حبا بحب، ونحن نرى كثيرا من المحبوبين ينفرون من محبيهم، فالقياس إذن غير مطرد، ويبدو أن نفس الذى ينفر من محبه ولا يقبل عليه إنما يبعده عنه بعض الأعراض الطارئة التى تكتنفها من الطبائع الأرضية، فلم تحس الصلة بينها وبين الجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى جسدها، أما المحب فنفسه متخلصة من هذه الأعراض عالمة بمكان من كان يشركها فى المجاورة فى أصل الفطرة، وهى لا تزال تبحث عنه، حتى تجده، فتنجذب إليه كالمغناطيس والحديد وكالنار والحجر، فحبه إنما هو تجديد لحب قديم فى النشأة الأولى، ولعل من الطريف أن نجد هذه الفكرة عند بعض العذريين إذ يقول:

تعلّق روحى روحها قبل خَلَقنا      ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدِ  
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا      وليس إذا متنا بمنتقض العهدِ

ويلاحظ ابن حزم أن النفس إذا ميزت في المحبوب شطرها الذى تبحث عنه ثبتت فيه، أما إذا لم تميز فيه هذا الشطر فإن حبتها لا يتجاوز الصورة الجسدية وهو حينئذ يكون حب لذة ومتاع، وهو ليس الحب السامى المنصفى الذى تجد فيه النفس كمالها المنشود وإنما هو الحب الجسدى الذى تنقاد فيه لداع غامض يصدر عن غرائزها.

وللحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقائه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقا لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط فى الحب ويغلب أن يلتقى فيه المحب والمحبوب، ثم التتيم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تيمّمته حيا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب. وتكرر مع مراتب الحب كلمات مثل الولع وهو شدة التعلق بالمحبوب، والشجن وهو الهمّ والكرب، واللوعة وهى الألم، وتباريح الحب وهى شدائده، والجوى وهو كتمانها والضيق به، والكمد وهو الحزن الشديد، والوجد وهو الصباة وشدة الحب، والوله وهو التحير من شدة الوجد، والكلف وهو الاستغراق فى الحب، إلى غير ذلك...

وإذا كان العرب قد شغلوا بالحب والحديث عنه كما شغل اليونان الأقدمون فإن الغربيين المحدثين قد شغلوا به وبالبحث فيه وفى طبيعته وأنواعه شغلا متصلا، ومن خير من بحثوا ذلك كله فى القرن التاسع عشر

ستندال الفرنسى، والحب فى رأيه أربعة أنواع: حب استلطافى أشبه ما يكون بالألفة والصداقة، وحب مغرور يرضى به المحب غروره وكبرياءه، وحب جسدى ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفى عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين فى التاريخ.

وعرض ستندال لنشأة الحب ونموه، فجعله يرقى فى سبع مراتب، أولها مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب، وثانيها مرتبة الشوق إليه، وثالثها مرتبة الأمل، أما الرابعة فهى المرتبة التى ينشأ فيها الحب. إذ يحس صاحبه إحساس اللذة والألم فيه. وحينئذ يأخذ الحب فى النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهى المرتبة التى يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى فى الجمال والسعادة به، بحيث لا يدانيه إنسان آخر فى صفاته ومحاسنه. وعبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين قال لها الحجاج : والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت له :

إنه لم يرنى بالعين التى رأيتنى بها، ومن أجل ذلك قال بعض المحبين :

ووالله ما أدرى أزيدت ملاحهً وحسنا على النسوان أم ليس لى عقل

وينتقل المحب عند ستندال من هذه المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة، وهى التى يصطفى فيها نيران القلق والخوف والشك المحرقة. ولا تليث هذه المرتبة أن تسلمه إلى المرتبة السابعة، وهى أقصى مراتب الحب وأبعدها غاية، وهى المرتبة التى يعنف فيها الحب، ويجمع بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا.

وفى هذا القرن، قرن علم النفس والتحليل النفسى كثرت أبحاث النفسيين فى الحب وعلاقته بالغريزة الجنسية والعقل الباطن الذى تعصف

به عواصف لا حصر لها من الغرائز والرغائب الجسدية والانفعالات الشعورية والعقلية. ويقول بعض الباحثين إن الحب انحراف بالغريزة الجسدية، أو هو تسام بها، ويقول آخرون: إنه استعادة لذكريات ماضية، بينما يزعم غير واحد أن المحب إنما يحب ذاته من خلال محبوبه، فهو لا يرى فيه إلا نفسه، وكأنه مرآة صافية له، فيحلم به وهو إنما يحلم بنفسه، ولكل محب طريقته في الحلم. ومن خلال هذا الحلم لا من خلال الحقائق المجردة تغنى المحبون بمن يحبونهم ونظموا فيهم أشعارهم الغرامية، التي تبعثها تلك القوة السحرية العجيبة قوة الحب التي تعمى المحب عن رؤية أى نقص فى محبوبه، بل التي تجعله يضىء عليه جميع الخصال والمحاسن، حتى وكأنه نسج من أشعة القمر، ولا يزال يعيش فى هذا الخيال أو هذا الحلم منتشيا بشرابه الصفو الهنىء.

### عوارض الحب

متى برح الحب بصاحبه أصبح إنسانا غير عادى، فهو يعيش فى عالم خاص به لا يرى فيه إلا محبوبه وخياله، وكأنما تضيق فى عينه آفاق الكون، فتصبح أفقا محدودا، بل رقعة محدودة يملؤها المحبوب والفكر فيه والتأمل فى جماله، ولعل ذلك ما يجعل المحب ينطوى على نفسه، فمحبوبه كل همه وفكره وشغله، وهو لا يأنس إلا إليه وإلى ما يذيقه من رحيق حبه وحريقه.

ويدفع ذلك المحب إلى أن يعيش فى عزلة عن مجتمعه، فقد ملأ عليه محبوبه كل وقته، وأصبح فتنة فاتنة له، لا يستطيع انصرافا عنها ولا تخلصا منها، وكأنه - كما يقول بعض النفسيين - يرى فيه نفسه وذاته أو يرى فيه الصورة التي كونتها غرائزه وعواطفه وانفعالاته التي اختزنها فى عقله الباطن

على طول الزمن، فهو يرى فيه الماضى والحاضر والوهم والحقيقة والخيال والواقع. ومن كل ذلك تتألف صورة المحبوب الجميلة الرائعة التى تستأثر به خالبة لللب، مألقة عليه كل شىء من أمره.

وكأن المحبوب يجمع للمحب كل ما انفعَل به وتأثر فيما مضى من حنان أمّ أو شفقة أب أو عطف أخت ومن جمال وجهه أو لون شعره أو طابع حسن أو نظرة ساحرة أو نغمة صوت وغير ذلك مما يستقر فى عقله الباطن، فإذا ما صادف شيئاً من ذلك فى شخص أنصب فى نفسه هذا التيار العجيب من الحب، أو قل نفذ هذا التيار من عقله الباطن إلى عقله الظاهر، فتسلط عليه هذا الشخص، أو قل سلط عليه هو ذكرياته وقوى خياله، فإذا هو يستحيل فى نظره إلى كائن شعرى فاتن أخاذ. وهذا هو سر الحب عند بعض النفسيين وسر رابطته السحرية التى توثق الأواصر بين المحب ومحبوبة، فإذا هو تكفيه منه النظرة والإيماء العابرة، أما الوصل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذى لا شائبة معه والصفاء الذى لا كدر فيه. وكل فراق وهجر لا يزيد المحب إلا ولوعاً بمحبوبة، وكذلك كل عدل ولوم، وكم شكا المحبون من العذال والرقباء والوشاة، وإنهم ليضنون ويسقمون ويطول بهم السهر والسهاد ويتعذبون عذاباً ممضاً، وهم منتشون لا يفيقون، سعداء بكل ما يألمون، أو كما قال الشاعر:

هو الحُبُّ فاسلم بالحسّ ما الهوى سؤلُ      فما اختاره مُضْنى به وله عقلُ  
وعشّ خالياً فالحبُّ أولُّه عَنَّا      وأوسطه سُقمٌ وآخِره قَتْلُ

وربما انتهى الحب بصاحبه إلى حال من الهيام تشبه حال المجانين، كما نعرف عن مجنون ليلى فى القديم، إذ يصيب المحب ذهول كذهول المجانين يأتي من استغراقه فى محبوبة وملازمته لفكرة واحدة هى فكرة حبه

وثبوتته عندها لا يفارقها، بالضبط كما يحدث لبعض المجانين حين يلزمون فكرة، لا يتحولون عنها ولا ينصرفون.

وإذا بلغ المحب هذه الدرجة من الفتون والجنون بمحبوبه لم يعد من الممكن أن يخلص من حبه وحلمه به، أما إذا كان حبه معتدلا فمن الممكن أن يخلص منه ويصحو من سكرته. ويحدث ذلك كثيرا إذ انتهى الحب بزواج، إذ يفتسح الزواج - في أحوال كثيرة - عيني المحب المعصوبتين، ويزيل ما عليهما من غشاوة سحرية، فيستيقظ من حلمه ويندم على ما فرط من أمره. وهو لا يندم سريعا، بل يأخذ في الندم رويدا رويدا وقد تراءت له خيبة مرة. ولذلك كان الناس يخافون من زواج الحب، وهو مهما يكن أجمل وأبقى من زواج المصلحة، وقد يظل المحب على حبه بعد الزواج، وحينئذ يكون الزواج مثاليا، بل يكون حلما ذهبيا سعيدا ليس وراءه ولا مثله حلم.





## الحب العذرى

### بنو عُدرة والحب

بنو عُدرة إحدى قبائل قضاة الكثيرة التي كانت تنتشر في شمالي الحجاز وتمتد عشائرها وبطونها من المدينة إلى الشام، وكانوا يسكنون وادي القرى، وهو وادٍ طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل:

ولقد أجزُ الذيل في وادي القُرَى      نشوان بين مزارعٍ ونخيلٍ

وفى هذا الوادي الممرع الخصب كان بنو عُدرة يتنقلون بخيامهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هائلة بالقياس إلى قبائل الصحراء الذين كانوا يقاسون غير قليل من الشظف، حين تجذب مراعيهم، فتموت القطعان ويهلك الناس.

لم تكن حياة بنى عُدرة قاسية، ولا كان فيها هذا الجذب المهلك، إنما كان فيها خصب ونماء هياً لشيء من الفراغ كما هياً لشيء من الاستقرار وأن تجرى الحياة هادئة، فليس فيها منازعات القبائل على المراعى وما صحب هذه المنازعات من حروب دائرة لا تنقطع.

وكان لذلك أثره فيما خلفت بنو عُدرة من شعر، فإننا لا نجد عندها شعر الحباسة والفخر والزهو الذى كان منتشرًا بين قبائل نجد، وإنما نجد عندها نمطاً آخر من شعر غنائى قوامه التعبير عن آلام النفس إزاء الحب وكانهم

لما فرغوا لأنفسهم أو هيأت لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم أخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجداني.

وليس معنى ذلك أننا لا نجد شعر الحب عند غير بنى عذرة، إنما معناه أنهم أكثرها منه وأن حياتهم أعطتهم الفرصة لكي يغنوا أنفسهم، أما بعد ذلك فإن العرب تغنوا بالحب، تغنت به قبائلهم منذ العصر الجاهلي ولكنها لم تجعله كل همها؛ فقد كانت الغارات تشغلها، وكان الأخذ بالثأر مدار حياتها، فنظمت في الفخر والمدح والهجاء.

أما بنو عذرة فانظروا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم الذاتية ما جعلهم يشتهرون بين القبائل العربية بهذا الغزل الصافي الرقيق، وكان للإسلام أثره في نمو هذا الغزل، بما فرض على الناس من أن يغضوا أبصارهم ولا يأتوا بقاحشة ولا ينتهكوا الحرمات.

ولم يقف تأثير مثالية الإسلام عند بنى عذرة، فقد أخذت هذه المثالية تطبع شعر البدو في نجد بطوايع واضحة من البراءة والطهارة والتسامي، فلم نجد نقرأ شعر الحب الإباحي الذي كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد في الجاهلية، إنما أخذنا نقرأ شعرا عقيفا، فيه نيل، وفيه هذا الحزن الذي يصدر عن نفس ملتاعة تخاف الله فيما تأتي من قول وفعل.

وهيأت لهذا الحزن أيضا بيئة الصحراء وما يخيم عليها من سكون وصمت في لياليها المقمرة الشاحبة، ولذلك لم يكن من الغريب أن تستهل القصيدة العربية حتى في الجاهلية بالبكاء على الأطلال والديار، فطبيعة البيئة الصحراوية تبعث على الشَّجَا والحزن والألم.

الصحراء والإسلام إذن هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف، وهو غزل يعبر عن أسمى العواطف التي

يفيض بها القلب الإنسانى. غزل نحس فيه لذع الحرمان وأن الرجل يتهيب الاقتراب من المرأة، فهى كائن ملائكى تحول قدسيته دون لمسه، وحتى هى إن وصلتته لا يزال يشعر شعورا عميقاً بالألم واليأس، بل قد يفضى به حبه إلى الجنون أو إلى الموت، وهو لا يأتى ذلك وحده، بل تأتبه المرأة أيضا سعيدة قريرة العين.

وتستفيض الأخبار بذلك عن بنى عذرة وغيرهم من الأعراب فى هذا العصر الإسلامى عصر مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس بن ذريح، سئل رجل من عذرة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، وقال رجل لعزوة بن حزام العذرى: يا هذا بالله أصحيح ما يقال عنكم: أنكم أرق الناس قلوبا؟ قال: نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت، ما لهم داء إلا الحب. وسئلت امرأة عذرية بها هوى يذنبها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا تعفف، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفنى آجالنا. وقيل لأعرابى: ما كنت صناعا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها وأستر منها ما لا يحبه الله، قيل، فإن خفت ألا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أكل قلبي إلى حبيها ولا أصير إلى نقض عهدها. وقيل لأعرابى آخر وقد زوجت عشيقته وأهلها يجوزونها لزوجها: أيسرك لقاؤها؟ قال: نعم والذى أمتعنى بها وأشقانى بطلبها، قيل: فما كنت صناعا؟ قال: كنت أطيع الحب فى لقائها والتمتع بحديثها وأعصى الشيطان فى إثمها وما يوحى من نزواته، ثم قال: وهل أفسد عشقَ عشر سنوات بما يبقى عاره فى ساعة تنفذ لذتها وتبقى تبعثها، إنى إذن للنائم، لم ينجبني أصل كريم. وقيل لبثينة: هذا جميل يتعذب فى حبك فهل عندك شىء تنفسين به وجده؟ فقالت: ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى.

وهذا الحب العفيف الطاهر انداحت منه موجة إلى البيئات المتحضرة في الحجاز، فإن أهل مكة والمدينة شاع عندهم حقاً غزل صريح نمته الحضارة والترف اللذان غرقوا فيهما، وهو غزل ثرثار لا يخجل ولا يتألم إلا قليلاً، ولكن مع شيوع هذا الغزل نجد أسراباً من غزل عفيف، تتغلغل في تضاعيف هذا الغزل الصريح، فإذا هناك من يشقون بالحب ويذوقون لذته الحلوة المؤلمة. وكانت أهم جماعة غزاها هذا الغزل العذرى هي جماعة الفقهاء وأصحاب الحديث من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عتبة وعبد الرحمن الجشمي الذي سمع سلامة وهي تغنى، فوَقعت في قلبه وهام بها حبا، ونظم فيها كثيراً من الأشعار، وكان يعرف بالقس لكثرة عبادته، فلما ذاعت فيها أشعار نسبت إليه، سُميت سلامة القس، وقالوا إنها همت ذات يوم أن تقبله فامتنع عليها، فقالت له: ما يمنعك وأنت تحبني؟ فقال لها ويحك أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْحَرٍ لِّبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا السَّعْبُ﴾ (الزخرف آية ٦٧) وإني والله أكره أن تكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة في يوم القيامة، ونهض وعيناه تذرفان بالدموع. وتأثر بصنيع الفقهاء كثير من أهل مكة والمدينة، فكان غير شاعر يرتفع بحبه عن أن يكون عبثاً ولهواً، وإذا كان عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين الحضريين في البلديتين يتخذ الغزل فناً من فنون الترف ويقصد به إلى العبث والدعابة، فقد كان وراءه غزلون صادقون يرتفعون بغزلهم عن اللهو والهزل على نحو ما نجد عند الحارث بن خالد القرشي، فقد كان عاشقاً لعائشة بنت طلحة، وله فيها أشعار كثيرة تصور وجهه وحرقته، ولما قتل عنها زوجها مصعب بن الزبير قيل له: ما يمنعك الآن من زواجها؟ قال: والله لا يتحدث رجالات قريش أن تشيبي بها كان لريبة ولشيء من الباطل.

وقد ظلت هذه الصورة الرائعة للغزل العفيف المحروم بعد العصر الإسلامي ترافق العرب في عصورهم المختلفة، فقد تأثرها غير شاعر، بل عاشها كثير

من الشعراء أمثال العباس بن الأحنف صاحب فوز المشهور بغزلياته فى العصر العباسى ، وعنى بها المؤلفون فألف فيها محمد بن داود كتابه الزهرة ، وألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة . وليس من ريب فى أن هذا الحب العفيف الذى يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات فى صور رائعة من الوجد ، ليس من ريب فى أنه هو الذى أعد فيما بعد لظهور الحب الصوفى ، فقد وجد فيه الصوفية نبعا لا ينضب ولا يجف لمواجهتهم إزاء الذات الإلهية ، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة فى حنايا صدورهم وما قاسوا فى حبيهم من صنوف الآلام والبلايا والمحن .

وما المحب العذرى إلا صوفى خالص ، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه ، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره ، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبيب ، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح ، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صغائر الحياة ، لعله يقترب من قدس الأقداس ، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعتة ، وما أشبه شعره بالتراتيل الدينية . لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى .

### غزل وقصص كثير

بين أيدينا من هذا الغزل العذرى تراث ضخم يحفل به كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني وغيره من كتب الأدب القديمة ، ونحن لا نلم به حتى نراع روعة شديدة ، وهى روعة ترجع إلى بساطته وسذاجته كما ترجع إلى صدقه وإخلاص قائله فى تصوير عاطفته ، ولذلك كنا لا نقرؤه حتى نتأثر به تأثرا شديدا ، لأنه يمثل نفوسا عاشقة حقا ، وهى نفوس تتألم ، نفوس قد

طهرها الحب وصفها من أدران الحس، فارتفعت عن المادة وكل ما يتصل بالمادة إلى أفق رفيع من نقاء القلب وصفاء الضمير.

والشاعر يمشى فى طريق ملئ بالصعاب والأشواك، صعاب الهجر والصد وأشواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعانى، لا يتحول عن وجهته، فعينه دائماً معلقة بالمحبيب، الذى سلب روحه وعقله وأشقى به على التلف والهلاك. ومهما صد عنه ولم يبادل له الهوى والود، فإنه لا ييأس من بلوغ الأمل المحجوب فى أستار الغيب، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاثفت الدياجى وتلاحقت الظلمات، فالحبيب سيدنو منه وسيفوز بلقائه، وسينهل من مورده العذب ما يشفى غصصه، ويزيل حزنه وترحه. ولكن أين هذا المورد العذب؟ إنه لا يظفر بنهلة منه تروى ظمأه، وهو إن اقترب منه لا يلبث أن يبعد فى صحراء هذا الحب، وهى صحراء موحشة محرقة، تمتلئ بأعاصير لا أول لها ولا آخر، وكَم يلقى سالكها من متاعب ومصاعب، وكَم يحف به من أخطار ومهالك، وهو باكى العين محزون الفؤاد موزع الخاطر قد امتلأ صدره بالمهموم والغموم.

ولا تظن أن هذا الجحيم الذى كان يشتعل فى فؤاد الشاعر العذرى كان حمماً ونيراناً خالصة، فإنه سرعان ما يتحول برداً وسلاماً ويصبح نعيماً وربيعاً باسماء حين يفوز من محبوبته بوصل أو لقاء أو زيارة فإن الدنيا تشرق من حوله، وتصبح بهجة وسعادة خالصة، وهى سعادة لا ينالها إلا بعد التعب والضنا والصبر الطويل. فالثمرة الحلوة لا يجنيها إلا من كابد وعانى، وعلى المحب دائماً أن يحتمل أوار الحب وما يلفحه من رياح الهجر، متطلعا إلى نسيم الرضا، وعليه أن يحتمل أشواك الطريق حتى ينال الرضا، وأن يعانى حنادس الليل الطويل حتى يظفر بالفجر الجميل.

وأنت لا تقرأ في شعر هؤلاء العذريين حتى يملك عليك نفسك بهذه اللوعة، بل هذه الغلة التي تتحرق لها قلوبهم دون أن يستطيعوا لها براء أو شفاء، وأنت لا تجد أثناء ذلك تكلفا ولا ما يشبه التكلف وإنما تجد صدق اللهجة وحدة الشعور وحرارة العاطفة مما يأسر لبك ويخلب عقلك. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الشعر العذري هو أروع صورة عربية لشعر الحب، فقد محص العشق قلوب هؤلاء الشعراء وطهرها وصفاها بل جعلها طهرا وشفاء خالصا.

وبون بعيد بين شعر هؤلاء الشعراء وشعر أسلافهم الجاهليين، فقد كانوا وثنيين ماديين، وكان شعرهم أو غزلهم ماديا إباحيا، لا كرامة فيه للمرأة ولا إجلال ولا قدسية، فالشاعر يتغزل فيها صادرا في غزله عن غرائزه الجنسية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، فإذا تركنا الجاهليين إلى كثرة الشعراء المتحضرين في مكة والمدينة ممن كانوا يعاصرون العذريين وجدنا الغزل عندهم تشوبه المادة في كثير من جوانبه، ويقصد فيه الشاعر إلى العبث والهزل والدعابة في كثير من الأحيان، فهو ليس شعر الحب الملتاع ولا شعر الحب العفيف الذي لا يعرف الحس والمادة ولا الهزل والعبث، وإنما يعرف الحب الجاد الحزين وما يبعث في نفس المحب من عاطفة متقدة ومن كآبة وحزن ومن يأس ورجاء وشقاء وسعادة.

وعلى هذا النحو لم يكن غزل العذريين كغزل المتحضرين الذين عاصروهم ولا كغزل أسلافهم الجاهليين، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دنس، وبرأها من كل غرض جسدي تافه، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة وإنما يراد به إلى تصوير هذه النفس العاشقة وما تبتئس به وتنعم في عشقتها وما تكابده في هذا العشق من ألوان العناء وما تجنيه من ثمرات مرة حلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة مرة في آن واحد.

والإسلام من غير شك هو الذى هيا لظهور هذا الغزل، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال، وبعث فى نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية، جعلتهم أو جعلت أفندتهم تصفى إلى تعاليمه، فإذا هى تخلصها من أدران الجاهلية وأدران الجسد وما يتصل بالجسد، وإذا هذه النفوس قد صفت وصفى معها الحب، وتخلص من شوائبه المادية القديمة. ولم تشع بين هؤلاء البدو من العذريين الحضارة ولا دخل فى ديارهم الترف، فلم تفسد نفوسهم ولا تحول غزلهم إلى فن من فنون الترف، بل بقيت له بداوته وسذاجته وبساطته، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلّة. فإذا هم ترق أحاسيسهم وتنبيل عواطفهم ومشاعرهم. وإذا هذا الغزل العفيف الظامى يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة.

ولم ترو لنا كتب الأدب هذا الغزل وحده، وإنما قدمته فى قصص غرامى يصور إلى حد بعيد تجارب كل عاشق من هؤلاء العشاق وما بعثه فى كل تجربة على نظم مقطوعاته الغزلية أو الوجدانية، وأنت لا تقرأ هذا القصص حتى تجد فيه المزاوجة الدقيقة بينه وبين الأشعار التى رويت فيه، فقد حافظ القصص على سياق هذا القصص، ولم يفرطوا فى وضع المناسبات الدقيقة لما ساقوا من أشعار.

والذى لا ريب فيه أن لغة هذا القصص كلغة ما روى فيه من أشعار، لغة فيها جزالة وفيها هذا الصفاء الذى نجده فى شعر العذريين، أو قل هذا الجمال اللفظى الذى يمتاز به الغزل العذرى. ولم يعقد الرواة فى هذا القصص، بل تركوه فى حال ساذجة، كسذاجة هؤلاء البدو الذين روى

عنهم، فهو قصص بسيط، ليس فيه تكلف ولا ما يتصل بالتكلف، قصص بدوى إن صح هذا التعبير، ليس فيه بُعد ولا إغراق فى التخيل، ومن هنا يأتى جماله، لأنه يصور حياة فطرية سليمة.

ويظهر أن القصص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم وأن مثالية الإسلام الخلقية هى التى دفعت إليه، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التى أحدثت هذا الحرمان، وهو سبب سيراه القارئ منتشرًا فى كثير من هذا القصص الذى روينا، وذلك أنهم يروون أن العرب فى هذا العصر الإسلامى الذى ظهر فيه ذلك الغزل العذرى الملتاع الظامى أبدا كانوا يكرهون أن يزوجوا فتياتهم من عشاقهم الذين ينظمون فيهن أشعارهم، فيفضحونهن ويفضحون آباءهن وعشائرنهن، وهى فضيحة كبرى لم يكن بد من أن يعاقب عليها العاشق، فيحرم من معشوقته جزاء وفاقا لجريمته فى حقها وحق أهلها. ولا يعرف التاريخ الصحيح هذه العادة للعرب، وهى ليست من سنن الإسلام ولا مما فرضه على الناس، وهو لا يحرم الحب الطاهر الشريف، إنما يحرم الحب الآثم الخسيس.

وزاد الرواة أن السلطان كان يهدر دم هؤلاء الغزليين، وليس بمعقول أن الخلفاء الأمويين كانوا يهدرون دماءهم ويستبيحونها، بغير نص من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى، وما حرم الإسلام شيئا كتحريم القتل، بل لقد حرمه حتى فى الأخذ بالتأثر، فكيف يحله الخلفاء والحكام فى العشق العفيف والحب الطاهر الشريف، ولقد كانوا هم أنفسهم يروون غزل هؤلاء المحبين ويعجبون به وبما فيه من وجد وهيام، وكان أمامهم شعراء مكة والمدينة من أمثال عمر بن أبى ربيعة، ممن كانوا يصرحون فى حبهم ولا يوارون ولا يستخذون ولا يخجلون، ولم يحدث أن طلبوا عقابهم فضلا عن قتل النفس

المحرمة بغير حق. إنما هو خيال القصاص الذين صاغوا هذه الأخبار، ولم يفكروا في أنهم يكتبون حقائق، إنما فكروا في أنهم يكتبون قصصا للتسلية والمتعة الأدبية، وقد رأوا في إهدار دم العاشق البدوي وتحريم المعشوقة التي تغزل بها عليه ما يحبك قصصهم الغرامى ويسند سياقه، فعمدوا إلى رواية ذلك بقصد الحكمة القصصية. ويمكن أن ندخل في هذه الغاية الفنية الخالصة ما تخيلوه من توحش مجنون ليلي حتى ألف الأطباء، وعاشته، وما أكثروا من غشيان الإغماء للعشاق وكيف أنه قد يودى بحياتهم. فكل ذلك إنما هو خيوط خيالية أضيفت إلى النسيج الواقعي لهذه القصص إغرامية، وهي خيوط ساعدت على إحكام هذا القصص وجعلته عملا فنيا بديعا.



## مَجْنُون لَيْلَى

### المجننون وصاحبته ليلى

كان قيس بن المُلُوح جميل الوجه أبيض اللون، وكانت ليلى ابنة عمه المهدي من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملهن شكلا. وقد نشأ معا يلعبان فى حى من أحياء بنى عامر بنجد، ويتبادلان صداقة الطفولة العذبة حتى إذا شبا قليلا تبعا - على عادة أمثالهما - أغنام أبيويهما، يرعيانها، وكل منهما يألف صاحبه ويشعر بالسرور فى رفقته، ولم يكونا يعلمان ما يخبئه لهما القدر وأنه جاء من ورائهما فى نسج قصة رائعة من قصص الحب العذرى الطاهر. وكم من أطفال نشئوا معا، وكم من أطفال تقابلوا وتحادثوا ولم يأبه بهم الناس، لأن لقاءهم وحديثهم ذهبيا مع الريح، أما لقاء المجنون بليلى وأحاديثه معها فقد خلدا على التاريخ، إذ تطور هذا اللقاء وتلك الأحاديث إلى نبع لا ينضب من ينابيع الحب الشريف. لقد كانا يرعيان الأغنام وأولادها الصغار التى يسميها العرب البهْم، وهما لاهيان عن الدنيا وعن أمرهما، لا يعرفان ما الحب ولا ما أماراته. وكبرت ليلى، وأصبحت عروسا تخطب، فمنعها أبوها من الرعى على عادة لداتها حين يكبرن، وظلت صورتها فى الرعى لا تبرح ذاكرة قيس، فقد كان يرى فيها أجمل ذكرياته معها، وفى ذلك يقول:

تعلقت ليلى وهى ذاتُ نؤابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من تُدبِها حَجْمُ  
صغيرين نرعى البهْمُ ياليت أننا إلى اليوم لم نَكْبُرْ ولم تَكْبُرْ البهْمُ

## اندلاع نيران الحب

انقطعت ليلي عن لقاء قيس بن الملوح، فأحس بفراغ كبير، بل سرعان ما أحس أن المودة التي كانا يتبادلانها تركت آثارا عميقة في نفسه، وذات مرة كان يمر بالحى راكبا ناقة له، فرآها مع نسوة، ودعونه إلى النزول والحديث معهن، فنزل، وكان محدثا لبقا، وجعل يحدثهن، وعينه لا تفارق ليلي، وجاءته لتمسك معه باللحم، وهو يقطعه، فقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها، فجذبت السكين من يده وهو لا يدري. وأوقد نارا للشواء، وطرح قطع اللحم فيها، وأقبل يحدثها، فقالت له: انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمد يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت وهو لا يشعر. ولما عرفت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شددت يده بهُذْب رداؤها. وذهب وقد استحكم عشقها في قلبه.

وكانت ليلي بعد هذا المجلس تستدعيه لزيارتها، فكان يأتيها ويتحدثان وكل منهما مقبل على صاحبه معجب به، ولا يزالان كذلك حتى يمسيا. وانصرف يوما إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها واجتهد أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لي الليلُ شاقِئنى إليك المضاجعُ  
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهَمُّ بالليلِ جامعُ  
لقد ثبتت في القلب منك محبةٌ كما ثبتت في راحتين الأصابعُ

وخرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية فتشأم منها، فلما سار إليها حدثها بقصته وتشاؤمه من الجارية وأنه يخاف تغيير عهدها وبكى، فقالت له: لا تخف، حاش لله من تغيير عهدي، لا يكون والله ذلك أبدا إن شاء الله. فلم يزل عندها يحدثها بقية

يومه. ووقع له فى قلبها مثل ما وقع لها فى قلبه. فجاءها يوما كما كان يجئ، وأقبل يحدثها، فأعرضت عنه، وأقبلت على فتى يسمى منازلًا بحديثها، تريد بذلك محنته وأن تعلم ما فى قلبه، فلما رأى ذلك جزع جزعا شديدا حتى بان فى وجهه وعُرف فيه، فلما خافت عليه أقبلت كالمسيرة إليه، فقالت:

كلانا مظهرٌ للناس بُغْضاً      وكلُّ عند صاحبه مَكِينُ  
تُبَلِّغُنَا العيونُ مَقَالَتَيْنَا      وفى القلبين ثَمَّ هَوَى دَفِينُ  
وأَسْرَارُ المَلَاَحِظِ ليس تَخْفَى      إذا نطقتُ بما تَخْفَى العيونُ

فُزِرَى عنه وانكشف همه وعلم ما فى قلبها، فقالت له: إنما أردت أن أمتحنك والذى لك عندى أكثر من الذى لى عندك، وأُعطي الله عهدا إن جالست بعد يومى هذا رجلا سواك، حتى أذوق الموت إلا أن أُكْرَه على ذلك، فانصرف عنها قريير العين، وهو يقول:

أظنُّ هواها تاركى بِمَضَلَّةٍ      من الأرض لا مالٌ لدى ولا أفلُ  
ولا أحدٌ أفضى إليه وصيَّتى      ولا صاحبٌ إلا المطيَّةُ والرَّحُلُ  
محا حُبُّها حُبُّ الألى كُنَّ قبلها      وحَلَّتْ مكانا لم يكن حُلٌّ مِن قَبْلُ

### استغراق المجنون فى الحب

وسئل قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شىء أصابه فى وجده بليلى، فقال: طرقتنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أدمٌ (غموس) فبعثنى أبى إلى منزل عمى أبى ليلى وقال: أطلب لنا منه أدمًا، فأنيتته؛ فوقفت على حُبائه، فصحت به، فقال: ما تشاء؟ فقلت: طرقتنا أضياف ولا أدم عندنا لهم، فأرسلنى أبى نطلب منك أدمًا، فقال: يا ليلى أخرجنى إليه

ذلك النَّحَى (زق السمن) فاملئى له إناه من السمن، فأخرجته ومعى قدح، فجعلت تصب السمن فيه وتحدث، فألهانا الحديث وهى تصبُ السمن. وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا فى السمن.

وأتيتهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلُفٌ ببُرْدٍ (ثوب) لى، فأخرجت لى نارا فى خرقة، فأعطينيها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخرقة قطعت من بردى خرقة وجعلت النار فيها، وكلما احترقت خرقة قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق على من البرد إلا ما وارى (ستر) عورتى وما أعقل ما أصنع.

### احتجاب ليلي

كان قيس أول ما علق ليلي كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعه من إتيانها وتقدموا إليه ألا يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفـس جارية فى عشيرتك، فيأبى إلا ليلي ويهذى بها ويذكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه فى الملامة والعذل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء:

فواكبدا من حُبِّ من لا يُجِبُّنى      ومِن زَفَراتٍ ما لهسنُ فَناءُ  
أتاركتى للموت أنى فميتُ      وما للنفوس الخائفات بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى فى هوى ليلي، وإنما هى امرأة من النساء؟ وهل لك فى أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع

إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إلكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت في الناس مستريحا، فقلن له: فما الذي أعجبك منها؟ قال: كل شيء، رأيتُه وسمعتُه وشاهدته منها أعجبتني. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان في عيني حسنا، ولقد جهدت أن يفتح عندي منها شيء أو يسمع أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا. فأنشأ يقول:

بيضاء خالصة البياض كأنها قمرٌ توَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ مُبْرَدٍ  
مُوسُومَةٌ بِالْحَسَنِ ذَاتُ حَوَاسِدٍ إِنْ الْجَمَالَ مَظَنَّةٌ لِلْحَسَدِ

### ليلى لا تفي لقيس بوعدها

وذكروا: أن ليلي وعده أن يزورها ليلة إذا وجدت فرصة لذلك، فمكث مدة يرأسلها في الوفاء وهي تعده وتسوِّفه حتى كان يوم خرج فيه الرجال عن الحى، فجلس إلى نسوة من أهلها في ناحية منها بحيث تسمع كلامه، فحادثهن طويلا، ثم قال: ألا أنشدكن أبياتا صنعتها في هذه الأيام؟ قلن: بلى، فأنشدن:

يا للرجال لهمَّ باتٍ يعروني مُسْتَطْرِفٍ وَقَدِيمٍ كَادَ يُبْلِينِي  
مَنْ عَاذِرِي مِنْ غَرِيمٍ غَيْرِ ذِي عُسْرِ يَا أَبَى فَيْمِطْلُنِي دُنَيْنِي وَيَلْوِينِي  
وَمَا كَشْكْرَى شُكْرٌ لَوْ يُوَافِقُنِي وَلَا مُنَايَ سِوَاهِ لَوْ يُوَاتِينِي  
أَطْعَمْتَهُ وَعَصِيْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي أَمْرِهِ وَهَوَاهِ وَهُوَ يَعْصِينِي

فقلن له: ما أنصفك هذا الغريم الذي ذكرته، وجعلن يتضحكن من قوله وهو يبكي. فاستحث ليلي منهن ورقَّت له حتى بكى، وقامت ودخلت بيتها، وانصرف.

## رسول بينه وبين ليلي

قال رجل من عشيرة قيس له وقد تدله في حبيها: إني لملم بمنزل ليلي  
فهل تودعني إليها شيئاً؟ فقال: نعم، قف بحيث تسمعك ثم قل:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ هَالِكَةً      بِالْيَأْسِ مِنْكَ وَلَكِنِّي أُعْزِيهَا  
مَنْيْتُكَ النَّفْسَ حَتَّى قَدْ أَضْرَبَهَا      وَاسْتَيْقَنَتْ خُلْفًا مِمَّا أُمْنِيهَا  
وَسَاعَةً مِنْكَ أَلْهَوْهَا وَإِنْ قَصُرَتْ      أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

فمضى الرجل ولم يزل يرقب خلوة من ليلي حتى وجدها، فوقف عليها،  
ثم قال لها: يا ليلي لقد أحسن الذي يقول:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ هَالِكَةً      بِالْيَأْسِ مِنْكَ وَلَكِنِّي أُمْنِيهَا

وأُشَدُّ الأبيات، فبكت بكاء طويلاً ثم قالت: أبلغه السلام وقل له:

نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَوْ نَفْسِي مَلَكَتْ إِذْنِ      مَا كَانَ غَيْرُكَ يَجْزِيهَا وَيُرْضِيهَا  
صَبْرًا عَلَيَّ مَا قَضَاهُ اللَّهُ فِيكَ عَلَيَّ      مَرَارَةً فِي اصْطِبَارِي عَنْكَ أَخْفِيهَا

وأبلغ الفتى قيسا البيتين وأخبره بحالها، فبكى حتى سقط على  
وجهه مغشياً عليه، ثم أفاق وهو يقول:

عَجِبْتُ لِعُرْوَةِ الْعُدْرَى أَضْحَى      أَحَادِيثًا لِقَوْمٍ بَعْدَ قَوْمٍ  
وَعُرْوَةُ مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرْحَبًا      وَهَا أَنَا مَيِّتٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ

## السنة السوء

اجتاز قيس بن ذريح بقيس بن الملوح وهو جالس وحده في نادى قومه،  
وكان كل واحد منهما مشتاقاً إلى لقاء الآخر، وكان قيس بن الملوح (المجنون)  
لا يحدث أحداً ولا يرد على متكلم جواباً، فسلم عليه قيس بن ذريح، فلم

يرد عليه السلام، فقال له: يا أخى أنا قيس بن ذريح، فوثب إليه، فعانقه، وقال له: مرحبا بك يا أخى، أنا والله مسلوب العقل، فلا تلمنى، فتحدثنا ساعة وتشاكيا وبكيا، ثم قال له قيس بن الملوح: يا أخى إن منزل ليلي منا قريب، فهل لك أن تمضى إليهما فتبلغها عنى السلام؟ فقال له: أفعل. فمضى قيس بن ذريح حتى أتى ليلي فسلم وانتسب فقالت له: حَيَّاكَ اللهُ، ألك حاجة؟ قال: نعم ابنُ عمك أرسلنى إليك بالسلام، فأطرقت ثم قالت: ماكنت أهلا للتحية لو علمت أنك رسوله، قل له عنى: رأيت قولك:

أبث ليلة بالغَيْلِ يا أمَّ مالكِ لکم غیر حبِّ صادقِ لیس یکذب

لقد فضحني بذكره ليلة الغيل (اسم واد) وأى ليلة هذه؟ وهل خلوت معه فى الغيل ليلا أو نهارا؟ فقال لها ابن ذريح: يا ابنة عم إن الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد فلا تكونى مثلهم، إنما أخبر أنه رأى ليلة الغيل لا أنه عناك بسوء. فأطرقت طويلا ودموعها تجرى وهى تكفكفها، ثم انتحبت، ثم قالت: اقرأ على ابن عمى السلام وقل له: بنفسى أنت، والله إن وجدى بك فوق ما تجد ولكن لا حيلة لى فيك.

### شفقة الأم

لما عشق قيس بن الملوح ليلي وهام بها ترك الطعام والشراب، فأشفقت عليه أمه ومضت إلى ليلي، فقالت لها، إن قيسا قد ذهب حبك بعقله وترك المطعم والمشرب فلو جئته وقتا لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله فقالت ليلي: أما نهارا فلا، لأنى لا آمن قوى على نفسى، ولكن ليلا، فأنته ليلا، فقالت له: يا قيس إن أمك تزعم أنك جُننت من أجلى وتركت المطعم والمشرب. فاتق الله وأبق على نفسك فبكى وقال:

قالت جُنِنْتُ على رأسي فقلت لها الحُبُّ أعظمُ ممَّا بالمجانين  
الحُبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرِّعُ المجنون في الحين  
فبكت معه، وتحدثا حتى كاد الصبح يُسفر، ثم ودعته وانصرفت. فكان  
آخر عهده بها.

### المهدى يرفض قيسا ويهدر الحاكم دمه

كان قيس عند أبيه الملوِّح أعظم منزلة من إخوته وكان أبوه ذا ثروة،  
فدفع له خمسين بعميرا وراعيها في مهر ليلي فلم يقبل أبوها المهدى مع  
أنه كان أقل منهم ودونهم ثراء، لسنة ذاعت عند العرب، وهي أنهم كانوا  
يكرهون تزويج اثنين انتشرت الأخبار بمحبتهما.

ولم يكتف المهدى برفضه، فقد أبلغ أمره وعشقه إلى الحاكم. فأهدر دمه  
إن أتاهم. وتوعده بالقتل إن ألمَّ بدارها، فقال:

ألا حُجِبْتُ ليلي وآلى أميرها على يميناً جاهداً لا أزورها  
على غير ذنبٍ غير أنني أحبها وأن فؤادي رهنها وأسيرها

ولما عرف أبوها أن هذا التهديد لا يصرفه عن غشيان داره وأنه لا يزال  
يطلب فرصة ارتحل بليلى وأبعد، وجاء قيس عشية فأشرف على الدار، فلم  
يجدها، فتصد مكانها، وألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه وهو  
يبكي ويقول:

يا صاحبي المأبى بمنزلة قد مرَّ حينُ عليها أيما حين  
إنى أرى رجعات الحُبِّ تَقْتُلُنِي وكان في بدنها ما كان يَكْفِينِي  
أَلْقَى من اليأس تاراتٍ فَتَقْتُلُنِي وللرجاء بشاشاتٍ فَتُحْيِينِي

## جنون قيس بليلى

لما بعد المهدي بابتته ليلي عن قيس ومنازل قومه جُنَّ بها جنونا، فكان لا يعاوده عقله إلا قليلاً، ولم تزل تلك حاله غير مستوحش، إنما يكون في جنبات الحى عاريا منفردا لا يلبس ثوبا إلا خرقةً، وهو يهذى ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحدا سألته عن شيء، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا ليلي، فيقول: أبأبى هي وأمى، ويرجع إليه عقله ويخاطبهم فيجيبونه.

ونا طال على قيس ذلك قال قوم لأبيه: لعل الجن قد أصابته، فكان يأتيه بالتائم والتعاويد ويرش عليه الماء، لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك، فكان يأبى هذا الصنيع إباء شديدا وينشد:

وجاءوا إليه بالتعاويد والرُقَى وصَبُّوا عليه الماء من أُمِّ النَّكْسِ  
وقالوا به من أعين الجنَّ نَظْرَةً ولو عقلوا قالوا به أعين الإنسِ

## توسط نوفل بن مساحق

كان نوفل بن مساحق يتولى جمع الزكاة من بنى عامر لوالى الحجاز من قبل بنى أمية، فسمع بشأن قيس، فرقَّ له، وذات يوم كان يمر بمنازل قومه، فرآه وهو يلعب بالتراب وقد تعرَّى جسده، فقال لغلام معه: يا غلام هات ثوبا، فأتاه به، فقال لبعض من معه: خذ هذا الثوب، فألقه على ذلك الرجل، فقال له: أتعرفه؟ جعلت فداك، قال: لا، قال: هذا ابن سيد الحى، والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طرح عليه ثوب خرقةً، ولو أنه كان يلبس ثوبا لكان فى مال أبيه ما يكفيه. وحدثه عن أمره: فدعا به نوفل وكلمه، فجعل لا يعقل شيئا يكلمه به.

فقال له قومه: إن أردت أن يجيبك جوابا صحيحا: فاذكر له ليلي، فذكرها له، وسأله عن حبه إياها. فأقبل عليه يحدثه بحديثها ويشكو إليه وجده بها وينشده شعره فيها، فقال له نوفل: هل انتهى بك الحب إلى ما أرى؟ قال: نعم وسينتهي بي إلى أشد مما ترى. فعجب منه وقال له: أتحب أن أزوجك إياها؟ قال: نعم وهل إلى ذلك من سبيل؟ قال نوفل: انطلق معي حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها إليك وأرغبهم في المهر لها. قال قيس له: أترأى فاعلا؟ قال: نعم، قال قيس: سأنظر ما تقول! قال نوفل: لك على أن أفعل ذلك. ودعا له بثياب، فألبسه إياها، وراح معه المجنون كأصح أصحابه يحدثه وينشده. فبلغ ذلك عشيرتها، فلقوه فقالوا: يا نوفل لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبدا أو نموت وقد أهدر لنا السلطان دمه، فأقبل بهم وأدبر، فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف. فقال له المجنون: والله ما وفيت بالعهد، فقال له: انصرفك بعد أن أياسنى القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء، فقال قيس:

إذا ذُكِرْتُ ليلي عَقَلْتُ وراجعتُ  
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جنةٍ  
وشاهدٌ وجدى دمعى عيني وحبُّها  
وأصبحت من ليلي العداة كناظرٍ  
عَوَازِبُ عَقْلِي من هَوَى مُتَشَعِّبٍ  
ولا لهمُ إلا افتراءُ التَكْذُوبِ  
بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمي ومنكبي  
مع الصبح في أعقاب نَجْمٍ مُغْرَبٍ

### ليلى لا تنسى قيسا

خرج رجل إلى أرض نجد في طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت، وكان قد أصابه المطر فعدل إليها، وتحنح، فإذا امرأة قد كلمته، وقالت له: انزل، فنزل، فقالت: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد، فقالت: أدخل أيها الرجل، فدخل إلى ناحية الخيمة، فأرخت

بينها وبينه سترا، ثم قالت له: أي بلاد نجد وطئت، فقال كلها وطئت. فقالت له: فيمن نزلت هناك؟ فقال: ببني عامر، فتنفست الصُعاء ثم قالت فبأى بني عامر نزلت؟ فقال: ببني الحريش (وهم قوم قيس). فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعت بذكر فتى منهم يقال له: قيس بن الملوّح ويلقب بالمجنون، فقال: بلى والله وعلى أبيه نزلت، وأتيته، فنظرت إليه يهيم فى تلك القيافى ويكون مع الوحش ولا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له فتاة يقال لها ليلي، فيبكي ويتشد أشعارا فيها. ولما سمعت ذلك من الرجل رفعت الستر بينها وبينه والتفت الرجل فإذا فُلقةٌ قصر لم تر عينه مثلها، فبكت حتى ظن أن قلبها قد انصدع، فقال لها: اتق الله أيتها المرأة فما قلت بأسا. فمكثت طويلا على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

ألا ليت شعرى والخُطوبُ كثيرةٌ      متى رَحَلُ قيسٍ مُستَقِلُّ فراجِعُ  
بنفسى مَنْ لا يستقلُّ بنفسه      ومَنْ هو إن لم يحفظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى سقطت مغشية عليها، فقال لها: من أنت يا أمة الله؟ وما قصتك؟ قالت: أنا ليلي صاحبة المشومة والله عليه غير الموسية له.

## لقاء مفاجئ

مر المجنون فى توحشه بحى ليلي، ولقيها فجأة فعرّفها وعرفته فصعق وخرَّ مغشياً عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلي فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا ليلي أن تقف له وقفة، فركنت لما رآته به، وقالت له: أعذر علىّ بما أنت فيه، ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى منه، فأفاق وجلس، وقال: هيهات إن دائى ودوائى أنت وإن حياتى ووفاتى لفى يديك، ولقد وكّلت بى شقاء لازما وبلاء طويلا، ثم بكى وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناؤلها بُعد  
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة على كيدي من طيب أرواحها بزُد  
ومازلت مَعثِيًّا على وقد مضت أنأة وما عندي جِواب ولا رُد  
عديني - بنفسى أنت - وعداً فربما جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

## زواج ليلى

وتسامع العرب بليلى وعشق قيس بن الملوح لها وجنونه بها، فخطبها كثيرون، فلم يرضهم أهلها، وخطبها شاب موسر من ثقيف (الطائف) فزوجوه بها. وأخفوا ذلك عن المجنون، ثم نعى إليه طرف منه فقال:

دعوت إليّ دعوة ما جهلتها ورئى بما تخفى الصدور بصير  
فقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتيني بالطلاق بشير

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقيف فقال:

كأن القلب لينة قيل يُغدى بئلى العامرية أو يزاح  
قناة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد غلق الجناح

وكان ينشد وهو يبكي ويتفجع:

أمزعةً للبين ليلى ولم تمت كأنك عما قد أظلك غافل  
ستعلم إن شطت بهم غربة النوى وزالوا بليلى أن ليك زائل

ونما أرادوا الرحيل بها أخذه أبوه، ووقف به مستترا، حتى ينظر إليها وهي راحلة مع زوجها وقومها. لعل ذلك يشفى شيئا من غليله. فلما رآهم يرتحلون بكى أحرَّ بكاء ونشج أحرَّ نشيج، وأنشد في صوت متقطع:

ألا أيها القلبُ الذي لَجَّ هائماً  
أفئقُ قد أفاقَ العاشقونَ وقد أنى  
بليلي وليدا لم تُقَطِّعْ تماثُله  
لما بك أن تلقى طبيبا ثلثمه  
ترى نأى ليلي مغرماً أنت غارمه  
فما لكَ مسلوبَ العزاءِ كأنما

فقال له أبوه: ويحك! إنما جئت بك متخفياً ليتروَّح بعض ما بك بالنظر إليهم، فإذا فعلت ما أرى عُرفت، وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم، فأمسك أو فانصرف، فقال: ما لي سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جازع ولا باك، فانصرف بنا، ومضى وهو يقول:

دُرِّ الدمع حتى يظعن الحىٰ إنما دموعك، إن فاضت، عليك دليلُ

### رفاق قيس يحاولون التسرية عنه

اجتمع إلى قيس بعد زواج ليلي ورحيلها بعض رفاقه ممن كان يألفهم ويأنس إليهم قبل توليه بها، فعزموا عليه أن يخرج معهم متنزهين في أحياء العرب للترويح عن نفسه. ولبي رغبتيهم، فسار معهم تعاوده الصحة دوراً والجنون دوراً، ومروا في طريقهم بجبلى نَعْمَانُ فقال له بعضهم: هذا جبلا نعمان وكانت ليلي تنزل بهما، فقال: فأى الرياح يأتي من ناحيتيها؟ فقالوا: الصبا، قال: فوالله لا أريم (أترك) هذا الموضع حتى تهب الصبا، فأقاموا معه ثلاثة أيام حتى هبت، فانطلق معهم، وأنشأ يقول:

أيا جبلى نعمان بالله خَلِيًّا      سبيل الصبا يخلص إلى نسيئها  
أجذُ بَرَدَها أو تَشْفِ منى حرارة      على كبدٍ لم يبق إلا صميمها  
فإن الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمتُ      على نفس محزونٍ تجلَّتْ همومها

وبينما كانوا يسرون أمطرتهم السماء مطراً شديداً أعقبته سيول كثيرة، جعلت عبراته تسيل، وأنشد بصوت حزين لم ينسه رفاقه ولا نسوا حرقة أبداً:

جری السیلُ فاستبکانی السیلُ إذ جرى  
 وفاضت له من مُقلتی غروبُ  
 وما ذاك إلا حينَ أيقنتُ أنه  
 يكونُ أجاجاً دونكم فإذا  
 انتهی إليکم تلقى طيبکم فيطيبُ  
 ألا كمل مهجور هناكَ غريبُ  
 وإن الكتيبَ الفردَ من أيمن الحمى  
 إلى وإن لم آتَه لحبيبُ  
 ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تُزُرُ  
 حبيبا ولم يَطْرَبَ إليك حبيبُ

وغفلوا عنه ليلة، ثم افتقدوه فلم يجدوه، فركب ابن عم له في طلبه،  
 فرآه عند مشرعة ماء وهو يتحدث إلى رجلين قد صادا ظبية، وربطها بحبل،  
 وعيناه تدمعان، يقول لهما: حُلَاها وخذا مكانها بعيري، وهو ينشد:

يا صاحبي اللذين اليوم قد أخذنا  
 في الحبل شُبها ليلي ثم غَلَاها  
 إنى أرى اليوم في أعطاف شاتكما  
 مشابها أشبهت ليلى فحَلَاها  
 فحلَّ الرجلان وثاقها فولت تعدو هاربة مذعورة، فقال:

أيا شبة ليلي لا تخافى فإننى  
 لك اليوم من وحشيّة لَصديقُ  
 ويا شبة ليلي لو تَلَبَّثت ساعة  
 لعل فؤادى من جَوَاه يُفِيقُ  
 تَفِرُّ وقد أطلقتُها من وثاقها  
 فأنت ليلي لو عَلِمْتَ طَلِيقُ

وحاول ابن عمه أن يعود به إلى رفاقه فأبى إلا الرجوع إلى منازل قومه،  
 فراقه، وهو في طول طريقه يئن ويتفجع وينشد:

تذكرتُ ليلى والسنين الخواليها  
 وأيام لا أُعدي على الدهر عاديها  
 خليلي لا والله لا أملك الذى  
 قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليها  
 قضاها لغيرى وابتلانى بحببها  
 فهلاً بشيء غير ليلى ابتلانيا  
 قضى الله بالمعروف منها لغيرها  
 وبالشوق منى والغرام قضى ليها  
 وما أشرف الأيفساع إلا صبابه  
 ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

أَعْدُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ      وَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا لَا أَعْدُ اللَّيَالِيَا  
أُحِبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا      وَأَشْبَهُهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا  
وَإِنِّي لِأَسْتَعْشَى وَمَا بَنَى نَعْسَةً      لَعَلَّ خِيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خِيَالِيَا  
هِيَ السَّحَرُ إِلَّا أَنْ لِّلسَّحَرِ رُقِيَّةٌ      وَإِنِّي لَا أَلْفِي لَهَا الدَّهْرَ رَاقِيَا

### ترده على جبل التوباد

كان قيس وليلى . وهما صبيان ، يرعيان أغنام أبويهما عند جبل التوباد ، وهو جبل في ديارهما ، فلما ذهب عقله وتوحش كان يجئ إلى ذلك الجبل فيقيم فيه ، فإذا تذكر الزمن الذي كان يطيف به هو وليلى جزع واستوحش وهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشام ، فإذا تاب إليه عقله رأى ديارا ومواضع لا يعرفها ، فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبي أنتم أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقولون له : وأين أنت من أرض بنى عامر؟ أنت بالشام ، عليك بنجم كذا في السماء ، فسر على جهته حتى تصل إلى ديار قومك . فيمضى على وجهه متبعا ذلك النجم ، حتى يقع بأرض اليمن . فيرى ديارا ينكرها وقوما لا يعرفهم ، فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر ، فيقولون له : وأين أنت من أرض بنى عامر؟ عليك بنجم كذا وكذا . ولا يزال على ذلك حتى يقع على التوباد ، فإذا رآه بكى وقال :

وَأَجْهَشْتُ لِلتُّوبَادِ حِينَ رَأَيْتَهُ      وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتَنِي  
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتَهُ      وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ فَدَعَانِي  
فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ كَانَ حَوْلَكَ جِيرَةٌ      وَعَهْدِي بِذَلِكَ الْحَيِّ مِنْذُ زَمَانِ  
فَقَالَ : مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي حَدِيثَهُمْ      وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ  
وَإِنِّي لِأُبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذْرِي غَدًا      فِرَاقَكَ وَالْحَيَّانِ مُؤْتَلِفَانِ  
سِجَالًا وَتَهْتَانًا وَوَبْلًا وَدَيْبَةً      وَسَحًّا وَتَسْكَابًا إِلَى هَمَلَانِ

## رجل يذم له ليلي

سأل الملوّح أبو المجنون رجلاً قدم من الطائف أن يمر بالمجنون فيجلس إليه ويخبره أنه لقي ليلي وجلس إليها ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها المجنون، وقال له حدثه بها، فإذا رأيتَه اشرأبْ لحديثك واشتهاه فعرفه أنك ذكرته لها ووصفت ما به فشتمته وسبته وقالت إنه يكذب عليها ويشهر بها بفعله، وإنما ما اجتمعت معه قط كما يصف. ففعل الرجل ذلك، وجاء إليه فأخبره بلفائه لها، فأقبل عليه وجعل يسأله عنها، فيخبره بما أمره به الملوّح فيزداد نشاطاً ويثوب إلى عقله، إلى أن أخبره بسببها إياه وشتمها له، فقال وهو غير مكترث لما حكاه عنها:

تعرُّ الصِّبَا صَفْحاً بَسَاكِنَ ذِي الْحِمَى      ويصدع قلبي أن يهبَّ هبُّوبُهَا  
قريبة عهد بالحبيب وإنما      هوى كل نفسٍ حيث حلَّ حبيبُهَا  
حلالٌ لليلي شَتْمُنَ وانتقاصنا      هنيئاً ومغفورٌ ليلي ذنوبُهَا

## حجه مع أبيه إلى الكعبة

ولما سلب المجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحَيَّ لأبيه: احجج به إلى مكة وادع الله عز وجل له، ووره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوّح سائر مع ابنه في بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى المجنون وأنشد:

ألا يا حمام الأيِّك ما لك باكيا      أفرقت إلفاً أم جفاك حبيبُ  
دعائك الهوى والشوق لما ترنمتُ      هتُوفُ الضُّحَى بين الغصون طروبُ  
تُجاوبُ وُزْقاً قد سمعتُ لصوتها      فكلُّ لكلِّ مُسعدٌ ومُجيبُ

وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه في أثناء سيرهما يخاطبه ويسئله ويعظه. وهو ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق.

فلما طال خطابه إياه قال له : يا بني أما لكلامى جواب ، فقال له : والله يا أبى ما علمت أنك كلمتني فاعذرني فإنني كما ترى مذهب بى ، ثم أنشأ يقول :

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ما كان منك فإنه سُغلي  
وأديم لَحْظَ محدثي ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلي

ونأ صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه، إذ يقول  
أخرجونى إلى الجبال لعلى أتشم صبا نجد ، فيخرجونه ، فيتوجه نحو نجد ،  
ويتنفس تنفسا يظن معه أن كبده قد انصدعت . وكان لا يلقى نجديا حتى  
يسأله عن وديان نجد واد واد وموضع موضع ، فيخبره وهو يبكى أحر بكاء  
وأوجعه للقلب . قائلا :

ألا حبيذا نجدٌ وطيبُ ترابها وأرواحها إن كان نجدُ على العهد

ونأ انتهى إلى منى سمع صائحا فى الليل يصيح : يا ليلي ، فصرخ صرخة  
ظنوا معها أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ،  
ثم أفاق حائل اللون ذاهلا . فأنشأ يقول :

عرضت على قلبى العزاء فقال لى من الآن فإياس لا أغرك بالصبر  
إذا بان من تهوى وأصبح نائيا فلا شىء أجدى من حلوك فى القبر  
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فميج أشجان الفؤاد وما يدرى  
دعاً باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائرا كان فى صدرى  
دعا باسم ليلي ضلل الله سعته وليلي بأرض عنه نازحة قفر

ونأ هبط من منى قال له أبوه : تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن  
يعافيك من حب ليلي ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم زدنى بليلى حبا  
وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا ، وقال فى بعض دعائه :

دعا المحرمون الله يستغفرونه  
وناديتُ أن يا ربَّ أولِ سُؤلتِي  
فإن أعطَ ليلي في حياتِي لا يتب  
وكم قائل قد قال تُبْ فعصيته  
فيا نفسُ صبرا لست واللهِ فاعلمي  
بمكة وهنا أن تمحَى ذنوبُها  
لنفسِي ليلي ثم أنتَ حسيبُها  
إلى الله خلق توبةً لا أتوبُها  
وتلك لعمري توبةً لا أتوبُها  
بأولِ نفسٍ غابَ عنها حبيبُها

وهام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلق في الصحراء مع الوحش، لا يأكل إلا ما ينبت في الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها. وطال شُعر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

### مع نوفل بن مساحق ثانية

لم يزل نوفل بن مساحق من يوم ذهابه مع قيس إلى أهل ليلي يخطبها له منهم متطلبا لأخباره جامعا لأشعاره ويقال إنه سأل عنه في سنة من السنين، فقال له أهله: توحش وما لنا به عهد ولا ندرى إلى أين صار فخرج من عندهم وأوغل في البادية يتصيد الوحش، ومعه جماعة من أصحابه، حتى إذا كان ببعض النواحي إذا هو بأراكة (شجرة كبيرة) عظيمة وقد بدا منها قطيع ظباء وفيها شخص إنسان يُرى من خلل تلك الأراكة، فعجب أصحابه من ذلك، وعرفه نوفل. فنزل عن دابته وتخفف من ثيابه وخرج يمشى رويدا، حتى أتى الأراكة، فارتقى حتى صار في أعلاها، وأشرف عليه وعلى الظباء، فإذا به قد تدلَّى الشعر على وجهه. فلم يكده يعرفه إلا بعد تأمل شديد، وهو يرتعى من ثمر تلك الأراكة، فرفع رأسه، فتمثل نوفل بببيت من شعره:

أتبكي على ليلي ونفسك باعدتُ مزارك من ليلي وشعباكما معا

فنفرت الظباء واندفع في باقى القصيدة ينشدها، فى أحسن نغمة وأجمل صوت، وهو يقول:

وما حَسُنُ أن تَأْتِيَ الأمر طائعا  
وأذْكرُ أيامَ الحمى ثم أنثني  
وتَجَزَعُ أنْ داعى الصباية أَسْمعا  
على كِبدي من خَشية أن تصدعا  
وليست غَشِيَّاتُ الحمى برواجعٍ  
عليك ولكن خَلَّ عَيْنِكَ تَدْمعا

واسترسل في إنشاد القصيدة، ثم سقط مغشيا عليه، فتمثل نوفل ببعض شعره، فرفع رأسه إليه، وقال له: من أنت حَيَّاك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مساحق، فحياه، ثم سنحت له الأطباء، فتركه وقام يعدو في إثرها لا يولى على شيء. ومضى نوفل إلى أصحابه فحدثهم بما كان من أمره معه.

### نهاية المجنون

ظل قيس يهيم في فيافي نجد مع الوحوش، وكان يقترب أحيانا من حمى بنى عامر، فيتبعه أهله ويرسلون إليه بالطعام مع حاضنة له كان يأنس لها. وروى أصحاب الأخبار أن رجلا من قبيلة بنى مرة خرج إلى أرض بنى عامر ليلقاه، فلما سألهم عنه دلوه على فتى من الحى كان له صديقا، وقالوا إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشعاره عنه إلا هو. فأتاه، فسأله أن يدلّه عليه، فقال له: إن كنت تريد شعره فكل شعر قاله إلى أمس عندي وأنا ذاهب إليه غدا، فإن كان قال شيئا أتيتك به. فقال له: بل إنى أريد لقاءه، فقال: إننى إن جننت معك نفر منك ونفر منى وذهب شعره، فقال له: بل دلنى عليه وأنا أذهب إليه وحدى. فقال له: اطلبه فى هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تظهر له أنك تهابه، وستراه يتهددك ويتوعدك بشيء يريسد أن يرمىك به، فلا يروعنك؛ واصرف بصرك عنه والحظه أحيانا، فإذا رأيته قد سكن من نفاه، فأنشده شعرا غزلا فإنه يسكن إليك.

وخرج الرجل فطلبه يومه إلى العصر، فوجده جالسا على رمل قد خط فيه بإصبعه خطوطا، فدنا منه غير منقبض فنفر منه نفور الوحش من الإنسان

وكانت إلى جانبه أحجار، فتناول حجرا منها، فأعرض عنه الرجل. ومكث  
قيس ساعة كأنه نافر يريد القيام. وما طال جلوس الرجل سكن فأقبل يخط  
بإصبعه، فاتجه إليه، وقال: أحسن والله من يقول:

وإني لَمُفْنٍ دَمَعٌ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ جِدَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ

فأقبل على الرجل يبكي حتى ظن أن نفسه قد فاضت وحتى رأى دموعه  
قد بلت الرمل الذي بين يديه، وأنشأ يقول:

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بِقَوْلِ يَحْيَى الْوَحْشِ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ  
تَنَاءَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَخَلَّفْتِ مَا خَلَّفَتِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

ثم سححت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الرجل. وعاد إليه  
من غد فطلبه فلم يجده، وجاءت حاضنته التي تأتيه بالطعام فوجدت ما تركته  
له بالأمر على حاله. وما كان في اليوم الثالث غدا عليه وجاء أهله معه فطلبوه  
جميعا. فلم يجده، وفي اليوم الرابع تتبعوا أثره حتى وجدوه في زاد كثير  
الحجارة وهو ميت بين تلك الحجارة. فاحتلموه وغسلوه وكفنوه ودفنوه.

### فجيرة أهله به

لم تبق فتاة من بنى عامر إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تنذبه، واجتمع  
فتيان الحي يبكون عليه أحر بكاء، وينشجون أشد نسيج، وحضرهم حتى ليلي  
معزين وأبوا معهم، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه، وجعل يقول: ما  
علمت أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكني كنت امرأ عربيا أخاف العار وقبح  
الأحدوثة فزوجتها وخرجت عن يدي، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا  
ما أخرجتها عن يده ولا احتملت ما كان في ذلك. وما رُئي يوم كان أكثر باكيا  
وباكية على ميت منه، ويقال إنهم لما حملوه وجدوا خرقة كتب فيها:

ألا أيها الشيخُ الذي ما بنا يرضى شقيت ولا هُدَيْت من عيشك الخُفْضا  
شقيت كما أشقيتني وتركتني أجيمُ مع الهلاكِ لا أطعمُ الغمضا

## موت ليلي

لما بلغ ليلي نبأ وفاة المجنون بكته بكاء مرا، وظلت تندبه أياما، وراجعها زوجها «ورد»، فلم تستمع إليه، بل تمادت في حزنها، فقال لها غاضبا: والله لقد هممت بتخلية سبيك، فقالت: لوددت أنك فعلت وأنى عمياء، فوالله ما تزوجتك رغبة فيك، ولقد كنت آليت على نفسي ألا أتزوج غير قيس أبدا، ولكن أبى غلبني على أمرى، ووالله إنى لزائرة قبر قيس وفاء له. وتجهزت للمسير، ورحلت، حتى نزلت في منازل قوم المجنون، فرآها أهله، فجاءوها مسلمين، فسألتهم عن قبره، فعرفوها به، فذهبت إليه وبكت وناحت بقول المجنون:

لقد عنيتنى يا حبَّ لَيْلَى ففَعَّحْ إما بموتٍ أو حياةٍ  
فإن الموت أيسرُ من حياةٍ منغصّةٍ لها طعمُ الشتاتِ  
وقالَ الآمرونَ تعرُّ عنها فقلتُ نعم إذا حانت وفاتي

ثم قالت: أما أنى لا أتعزى عنك يا حبيبي ولا أسلوك أبدا، وأنت ورفعت صوتها تقول:

أبلى الثرى وترابُ الأرض جيّته وزادنى الموتُ أشجانا على شجنى  
أبكى عليه حيننا حين أذكره حنينٌ والهبة حنّت إلى سكنِ  
أبكى على من حنّت ظهري مصيبته وطيّرَ النومَ عن عيني وأرقنى  
والله لا أنس حبي الدهر ما سجت حمامةٌ أو بكى طيّرٌ على فننِ

وجعلت تتردد على قبره أياما، وتمكث عنده باكية إلى الغروب. وأتاه زوجها، فاعتذر لها، وبالغ في اعتذاره. فلم تقبل منه، وظلت أربعين يوما

تخرج إلى قبر قيس وتندبه، حتى إذا كان اليوم الأخير زادت في البكاء  
والعويل، وألصقت خدها مرارا بالقبر وهي تصيح بأعلى صوتها:

كفى حَزنا أنى أروح بحسرةٍ وأغدو على قبرٍ ومن فيه لا يدرى  
فيا نفس ذوقى حَتْفَ عمرك عنده ولا تبخلى بالله يا نفس بالعمر  
فما كان يابى أن يجود بنفسه ليُفدينى لو كنت صاحبة القبر

وأغرقت في الندب والنحيب، وانكبت على القبر تقبله وتعانقه، ثم  
شهقت شهقة مديدة، وصمتت إلى الأبد. وحُرِكت، فإذا هي قد ماتت.



## جَمِيدٌ وَبَثِينَةٌ

### أول الحب

فى مساكن بنى عذرة حول تيماء ووادى القرى بشمالى الحجاز نشأ جميل وبثينة، وأول ما كان من تعلق جميل بصاحبته أنه أقبل يوما بإبل له حتى أوردها ماء فى واد يسمى وادى بغيض، وكان ينزل به قوم بثينة، وتصادف أن كانت هى وإحدى صواحبها تردان الماء، تستقيان منه، فمرتا على بغير له، فنفرهما، فتعرضت لجميل ببعض القول، فوقعت من حينئذ فى نفسه، وأخذ ينظم فيها بعض غزله ونسيبه.

ولما عرفت بثينة أن جميلا أحبها ونسب بها حلفت لا يأتياها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه أبدا، فكان يأتياها عند غفلات الرجال، فيتحدث إليها ومع أخواتها، وظلا على ذلك حينما طويلا يتلاقيان ويتشاكيان الهوى.

### بأعين أبيها وأخيها

وسعت جارية لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما إنها واعدت جميلا الليلة، وهى معه الآن، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياها جالسا بعيدا عنها بحيث تسمع حديثه، وهو يشكو إليها بثه وحبه، وفى أثناء حديثه قال لها: يا بثينة أرايت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزيته؟ قالت: بماذا؟ قال: هم يكون بين المتحابين، فأنكرت عليه قوله. فقال: والله ما أردت

قبيحا، إنما أردت أن أبلوك، ولو رأيت منك مساعدة لى لضربتك بسيفى هذا  
وهجرتك هجر الأبد، أو ما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بُثينة بالذى لو أبصره الواشى لَقَرَّتْ بِلَابِلُهُ  
يَلَا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله  
وبالنظرة العجلى وبالحوّل تنقضى أوأخّره لا تلتقى وأوائله

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما وجدنا عليهما من ربة، وانصرفا وتركاهما.  
والتفت جميل إلى بثينة وقال:

لقد قلت فى حبى لكم وصابتى محاسنَ شعرٍ ذكروهن يطولُ  
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى هبوب الصبا يا بئن كيف أقول  
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها، والخيال يزول  
وما زالا يتحدثان حتى أصبحا فودعها وداع المحب الوامق.

### هجر ثم وصل

وحدث يوما أن أقبلت بثينة على فتى من عشيرتها، لترى أثر هذا الإقبال  
فى نفس جميل، فأنشدتوا:

وعُدنا كأننا لم يكن بيننا هوى وصار الذى حلّ الحبال هوى لها  
وقالوا نراها يا جميل تبدلت وغيرها الواشى فقلت: لعها

وزهب يندب حظه فى أشعار كثيرة، يذكر فيها هجرها وأنها لم تحافظ  
على عهدنا له، وقال فيما قال:

يا ليتنى ألقى المنية بغتة إن كان يوم لقائكم لم يُعَدِرِ  
أو أستطيع تجلداً من ذكركم فيغيق بعض صبابتى وتفكرى  
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صدائ صدك بين الأقبُر

ورقّت له ، فواعدته ، والتقىا ، وأخذ كل منهما يشكو صاحبه ، وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ ، فأنشأ يقول :

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوةً      وفي النفس حاجاتُ إليك كما هي  
وإني لتتّنيني الحفيظةُ كلما      لقيتُك يوماً أن أبثُّك ما بيا

فالتفتت بثينة إلى مولاة لها كانت معها وقالت لها : ما أحسن الصدق بأهلك ، ونظرت إلى جميل وقالت له : أنشدني قولك :

تظل وراء الستر تترنو بلحظها      إذا مرّ من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها فبكت ، وقالت : كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقني غيرك .

### أهل بثينة يمنعون جميلاً من لقائها

شاع شعر جميل في بثينة ، وكان من عادة العرب حين يكثر شاعر من غزل بفتاة أن يمنعوها من لقائها حتى لا يفضحهم بها . فتعرض له أبوها وأخوها يتهددانه بالقتل إن هو عاد إلى صوته بها وفضيحتها في أحياء العرب . فكان يقول : والله القتل أحبُّ إليّ من عدم لقائها ، وإني لأتمنى الموت فيها وينشد :

فليت رجلاً فيك قد نذروا دمي      وهموا بقتلي يا بئين أقروني  
إذا ما رأوني طالعا من ثنيةٍ      يقولون : من هذا وقد عرفوني  
يقولون لي : أهلا وسهلا ومرحبا      ولو ظفروا بي ساعة قتلونني

وكانوا كلما نعى إليهم أنه قريب من دارهم حرسوها ومنعوها من لقائه . فكان يظن أنها هجرته ، وكان نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له إنها مشغولة

بغيرك، وإنما حصلت منها على الباطل والكذب، وغيرها أولى بوصلك منها،  
كما أن غيرك يحظى بها، فكان يقول:

مَنِّيْتَنِي فَلوَيْتِ ما منيتني  
وتتأقلت لما رأت كَلْفِي بها  
وأطعت في عواذلا فهجرتني  
حاولتني لأبُت حبلٌ وصالكم  
ويقلن إنك قد رضيت بباطلٍ  
ولباطلٍ مما أحب حديثه  
ليُزلن عنك هوى ثم يصلنني  
وجعلت عاجل ما وعدت كآجلٍ  
أحبب إليّ بذاك من متناقلٍ  
وعصيتُ فيك وقد جهَدن عواذلي  
مني، ولست وإن جهَدن بفاعلٍ  
منها فهل لك في اجتناب الباطلِ  
أشهى إليّ من البغيض الباذلِ  
وإذا هَوِيْتُ فما هَوَى بزازلِ

### لقاء على غير موعد

ظل جميل ممنوعاً من لقاء بثينة مدة وهو لا يتعرض لها بجهد، فلا يصل إليها، وبينما هو ذات ليلة جالس في أشجار بالقرب من حبيها، وقد أقام فيها ثلاث ليال ينتظرها، وإذا بشخص قد أقبل إليه، فانتضى سيفه خائفاً، وإذا هي بثينة، فتعانقا طويلاً. وجلسا صامتين، وجميل لا يستطيع أن يحدثها ولا أن يراجعها كلمة حتى أسفر الصبح، فودع كل منهما صاحبه، ولم يلبث أن ذكر ما كان فيه فقال:

وإن تك قد شطت نواها وقد نأت  
وإن يك طول الحب يا قلب ناعى  
ولست كمن يُفشى على الخدن سره  
وأنسى إذا لاقيتها بخلائها  
فيا رب حببني إليها وأعطني المـ  
فإن النوى مما تُشئت وتجمع  
فقد طالما أحببت والصور أنفع  
وعندي له في الصدر سرٌّ وموضع  
من القول ما قد كنت بالأمس أجمع  
سودة منها أنت تعطى وتمنع

وإلا فصبرُتي وإن كنت كارهاً فإني بها يا ذا المعارج مولعٌ  
وفى الصبر عن بعض المطامع راحةٌ إذا لم يكن في الشيء ترجوه مطمئعٌ

### رسول إلى بثينة

كان كثير صاحب عزة يألف جميلاً ويلزمه، فلقبه يوماً، فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند أبي الحبيبة - يعنى بثينة - فقال له: وإلى أين تمضي؟ فقال إلى الحبيبة - يعنى عزة - فقال له: لا بد من أن ترجع عودك على بدئك، فتأخذ لي موعداً من بثينة، فقال كثير: عهدى بها وبأبيها الساعة، وأستحي أن أرجع، فقال جميل: لا بد من ذلك. فقال له كثير: فمتى كان آخر عهدك بها؟ قال جميل: في أول الصيف، وقد وقعت سحابة بأسفل وادي الدؤم، إذ خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتني أنكرتني، وضربت بيديها إلى ثوب في الماء فغطت نفسها به، وعرفتني الجارية فأعادت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس. وسألتها موعداً، فقالت: أهلى سيرتحلون عن قريب. وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها. فقال كثير له: فهل لك في أن أتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوقة بها؟ قال جميل: ذلك الصواب. فأرسله إليها، فقال له كثير: انتظرنى.

شم خسر ج كثير حتى أناخ بدار بثينة ناقته، ورآه أبوها، فقال له: ما وراءك؟ قال كثير: ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك، قال هاتها، قال كثير: فأشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي إليك رسولاً والموكل مُرسلٌ  
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعل  
وآخر عهدى منك يوم لقيتني بأسفل وادي الدوم والثوب يغسلُ

فصربت بثينة جانب خدرها، وقالت: احسأ، احسأ، فقال أبوها: ما الذى بك يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية. ثم قالت للجارية: ابغينا من الدُّومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وراح كثير إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدُّومات. وقالت بثينة لبنيات خالتها: أم الحسين وليلى ونجية وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن: إنى قد رأيت فى لحن نشيد كثير أن جميلاً معه. وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدُّومات، وجاءت بثينة ومن معها، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر، ما أدري أيهما كان أفهم.

### مبارزة

خطب جميل بثينة من أبيها فردده، لكراهة العرب أن يزوجوا بناتهم ممن يشهرون بين ويتغزلون فيهن، فخطبها ابن عم لها يسمى نبيها، فوعده أبوه أن يزوجهما منه، غير أنها لم ترضه لنفسها إذ كان قبيحاً دميماً فى إحدى عينيه نكتة بياض قبيحة. وحدث أن خرج جميل وابناً عمه: روق ومسعدة وخرج معهما نبيه إلى الصيد، فمر بهم رجل من قبيلة خزاعة كان قويا يهوى المبارزة وانصاعة، فقال له نبيه: هل لك فى مصارعتى؟ قال: ذلك إليك، فتصارعا، فصرعه الخزاعى وجلس على صدره. فضحك جميل وصاحبه من ذلك. فقام نبيه إلى الخزاعى، فقال له: عاودنى، فقال: لا أفعل، فتعلق به. فقال له جميل: ماذا تريد من الرجل؟ طالبته بالصراع، فصرعك، والنعادة إليه إن أرادها، وإلا فلا سبيل لك عليه. قال: أفتصارعنى يا جميل؟ قال: وما تريد بذلك؟ قال: أحبه وأشتهيه. قال جميل: فوالله مالك فيه خير. فإن أحببته على ذلك فهلم.

وتصارعا فصرعه جميل. ثم سأله المعاودة فصرعه ثانية، ثم سأله المعاودة  
ثالثة فصرعه. وقام نبيه فانصرف إلى الحى مغضبا، وأقام جميل مع ابنى عمه  
على صيدهم. وسأل فتیان العشيرة نبيها عن سبب رجوعه دون أصحابه،  
فقال: دعانى جميل إلى المناصرة، فكرهت ذلك، ثم ألح على، فصارعته،  
فصرعته، فوثب على ابنا عمه، فنجحاني عنه وألقياد على صدرى، فرجعت  
مغضبا. فقالوا له: ما كان ينبغى لك أن تصارع ابن عمك. وإذا قد جرى هذا  
فلا ينبغى لك أن تفيض فى ذكره ولا تعيده. ولكنه مضى يذيع ذلك فقالت  
بثينة: كذب والله نبيه لو صرع جميلا ما غم وجهه وتكدر ولكن جميلا  
صرعه، فجاء مغضبا، وتضاحكت به هى ونساء الحى. وعاد جميل وصاحباها  
فتحدثوا بالخبر على وجهه الصحيح.

### زواج بثينة

ألح نبيه منذ صرعه جميل على أبى بثينة أن يزوجها منه، وبذل له مالا  
عظيما وكان كثير المال، فتزوجها ودخل بها على كره منها. ولما بلغ ذلك  
جميلا وعرف أنها لم تعد من حظه بكى أحر بكاء، وأنشد:

أعادلَ قد أكثرتِ جمِلا من الجهلِ      على غير شيء من ملامى ومن غدلى  
ولو تركتُ عقلى معى ما طلبتها      ولكن طلبتها نافات من عقلى  
فيا ربَّ ما وقَّيت شيئا فوقها      حُتوف الردى يا ربَّ واجمع بها شملى  
فأنتِ حديث النفس إن كنتِ خالبا      وجلُّ حديثى أنتِ فى الجد والهزلِ  
فلا تقتلينى يا بئينَ فلم أصب      من الأمر ما فيه يحلّ لكم قتلى  
ويا رب لا تجعلْ بثينة شقوة      على ولا تجعلْ بيجرانها قتلى

## بثينة لا تنساه

ما برحت بثينة بعد زواجها تذكر جميلا وتسال عن شعره الذى ينظمه فى هواها، وكان لا يزال يلم ببيتها فرأته جارية لها فلم يكلمها ولا أعلمها أنه قصد صاحبته، وجلس غير بعيد مستظلا بشجرة. فبادرت الجارية إلى بثينة فأعلمتها. فجاءت هى وبعض بنات خالتها: أم الحسين ولىلى ومعهن عجوز تسمى أم منظور، فلما رأيته سلّمن عليه وجلس إليهن، فقالت له أم منظور: أين كنت بعدنا؟ لقد طال شوقنا إليك فقال: كنت فى أهلى إذ رأيت التباعد عما أحدث أجمل. فبكت بثينة وقالت: لكنا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالى إلا شوقا إليك وتجديدا لمودتك وتحديثا بقية يومهما، وسألته أن ينشدنا بعض ما أحدث من شعره فقال:

ألا هل إلى المامة أن أئلمها      بثينة يوما فى الحياة سبيلُ  
فإن هى قالت: لا سبيل فقل لها:      عناء على العذرى منك طويلُ  
على حين يسلو الناس عن طلب الصبا      وينسى أتباع الوصل منه خليلُ

فبكت وجزعت، ثم قالت له: إنى أعجب مما تتمناه فى قولك،

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى      بثينة لا يخفى على كلامها

ويحك! ما حملك على هذه الأمنية، أو ليس فى سعة العافية ما يكفيننا.  
وأمسى المساء فتركها وانصرف.

## ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها، وذلك فى ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابته بعض صواحبها ففزعت وقالت: والله ما حذفتنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن

فقالَت لها بثينة وقد فطنت: إن جميلا فعل ذلك، فانصرفى يا أختى إلى خبائك حتى ننام، فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت معهما إلى جميل، فأدخلنه الخباء، وكان زوجها غائبا، فدخل وهو ينشد:

لها فى سواد القلب بالحب مِيعَةٌ      هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرفُ  
وما ذكرتكِ النفسُ يا بَثْنُ مرَّةً      من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تتَلَفُ  
وإلا اعترتني زفرةٌ واستكانةٌ      ووجد لها سَجْلُ من الدمعِ يذرفُ  
وما استطرفتِ نفسى حديثًا لحلَّةٍ      أسرُّ به إلا حديثكِ طَرْفُ  
وتحدثا طويلا حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبح من اللبن، فأراها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلى والصبح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها، وقالت احذرى جميلا وبثينة، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجى بصبح من اللبن فرآنا نائمين. فقام وودعها وهو يبكى قائلا:

ألا أيُّها البيتُ الذى حيلَ دونهُ      بنا أنت من بيتٍ وأهلك من أهلِ  
ثلاثة أبياتٍ فبيتُ أحبِّه      وبيتان لىسا من هواى ولا شكلى  
كلانا بكى أو كاد يبكى صباةً      إلى إلفه واستعجلتُ عبرةً قبلى  
خليلى فيما عشتُما هل رأيتُما      قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلى

### أهل بثينة يطاردونه

وذكر رجل من بنى عذرة أنه كان جالسا يوما مع جميل وهما يتحدثان وإذا وجهه يكفه، فأنكره ورأى منه غير ما كان يرى، ووثب جميل نافرا

مشعت الشعر متغير اللون، فأتى بناقة له قوية موثقة الخلق، فشدَّ عليها رحله، ثم أتى بقدر فيه لبن فشربه وجاء الرجل بقدر آخر، ثم قال له: اشد جملك واتبعنى فإنى ذاهب إلى بعض مذاهبي، ففعل ما طلبه إليه. فسارا حتى انتهيا إلى منازل قوم، لم يجدا بها أحدا من الرجال، إذ كانوا فى نجعة، وقد خلفوا النساء وراءهم، فمال جميل إليهن، فلما رأينه عرفنه، وكانت فيهن صاحبتة بثينة. وبينما هو يحدثهن إذا الرجال قد أقبلوا، فقلن له: ويحك: انج بنفسك وبصاحبك، فلم يلتفت إلى ما قلن. وغشيه رجال الحى فعملوا يرمونه ويطردونه. فانصرف بصاحبه ومضى به حتى رجع إلى أهله.

### وعد لا يتحقق

وزار جميل بثينة ذات يوم فنزل قريبا من ماء عشيرتها (البئر التى يشربون منها) يترصد جارية لها فلم يكن نزوله بعيدا من ورود جارية حبشية لها، ومعها قربة، وكانت به عارفة بما بينه وبين بثينة. فسلمت عليه وجلست معه، وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدثها بخبره بعدها. ويحملها رسائله. ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه إلى بثينة وتأخذ موعدا عليها، فوعده بتحقيق ذلك. وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأت عليهم. فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها، فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت، فضربوها ضربا مبرحا، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه.

ومر بهم فى تلك الحال فتیان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضع الذى فيه جميل، فأحيا أن يثبطا عنه أهل بثينة، فقالا لهم: إنكم إن لقيتم جيلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، وأهل جميل شجعان أشداء، لا يتركون ثأرهم، فدعوا الجارية توصل خاتمه إلى بثينة. فإذا زارها صنعتم ما شئتم، قالوا: صدقتما إن هذا هو رأى. فدفعوا

الخاتم إلى الجارية وأمروها بإيصاله وحذروها أن تخبر بثينة بأنهم علموا القصة، ففعلت، ولم تعلم بثينة بما جرى. ومضى الفتيان فأنذرا جميلا، فقال: والله ما أرهبهم وإن في كنانتي ثلاثين سهما، والله لا يخطئ كل واحد منها رجلا منهم، وهذا سيفي والله ما أنا رعش اليد ولا جبان الجنان. فناشده الله وقال: البقية أصلح، فتقيم عندنا في بيوتنا حتى ينتهي طلبهم لك، ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف سليما غير معيب. فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها، فأتياه بجارية لهما وقال له: قل ما حاجتك؟ فقال: ادخلي إليها وقولي لها: إنى أردت اقتناص ظبي فحذره ذلك جماعة، وقالوا له: إياك، ففاتنى الليلة.

فمضت الجارية فأعلمت بثينة ما قال لها جميل، فعرفت قصته، وسألت أهلها فعرفوا الخبر، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح مكانها؛ ومضوا يقتصون أثره، فلم يجدوه، فعرفوا أنه قد فاتهم. وظل جميل عند صاحبيه أياما ينتظر لقاء بثينة، فلم يتحقق له ما شاء، ولا استطاع صاحباه أن يسعفاه، فتركهما ومضى على وجهه وهو ينشد:

ألا من لقلب لا يَمَلْ فَيَذْهَلُ      أَفَقُّ فَالْتَعَزَّى عن بثينة أجملُ  
 وإنَّ التي أَحَبَّبتْ قد جيل دونها      فُكُنْ حازما ، والحازم المتحوِّلُ  
 سلا كلُّ ذى وُدٍّ عَلِمْتُ مكانه      وأنتَ بها حتى الممات موكلُ  
 فإيا قلبُ نَعْ ذكري بثينة إنَّها      وإن كنت تهواها تَضُنُّ وتبخلُ  
 وما هو إلا أن أهيمَ بذكرها      ويحظى بجذواها سواى وَيَجْدُلُ  
 وآخر عهدى من بثينة نظرةٌ      على موقبِ كادتْ من البين تَقْتُلُ  
 وإنى لأُستبكي إذا ذُكر الهوى      إليكَ وإنى من هواك لأُوجِلُ  
 إذا ما كررتُ الطَّرْفَ نحوكَ رَدَدَ      من البعد فيأضُّ من الدمع يَهْمِلُ

## مساعدة ولقاء

شكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إمام جميل ببيتها وبها، فوجهوا إلى جميل وأعدروا إليه وشكوه إلى عشيرته وتوعدوه ، وأتى جميل أهله فلاموه وعنفوه وقالوا له : إنا نستحلف إليهم ونتبرأ منك ومن جريرتك (جنائتك) ، فأقام مدة لا يلم بها. ثم لقي ابني عمه : روقا ومسعودا فشكا إليهما ما به ، وأنشدهما قوله :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| زورا بثينةً والحبيب مزورٌ   | إن الزيارةً للحبيب يسيرٌ   |
| إني عشيةً رحمتُ وهي حزينَةٌ | تشكو إلى صبايةً لصبور      |
| وتقول بئ عندي فديتُك ليلَةٌ | أشكو إليك فإن ذلك يسير     |
| غراءٌ ميسامٌ كأن حديثها     | دُرٌّ تحدرُّ نظْمُه منشورٌ |
| لا مثلها حُسْنٌ ولا كدلالها | ذلٌ ولا كوقارها توقيرٌ     |
| ولئن جزييتِ الودَّ مني مثله | إني بذلك يا بُثَيْنٌ جديرٌ |

فقال له روق : إنك لعاجز ضعيف في حبك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك بين ذل لا أحبه لك أو كمد يؤديك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إغذارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت، فبكي وأنشد :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ   | حبيبٌ إليه في ملامته رُشدى    |
| وقال أفقٌ حتى متى أنت هائمٌ    | بيثنةً فيها قد تعيد وقد تُبدي |
| وإن يك رُشداً حبُّها أو غوايةً | فقد جثته ما كان مني على عمْد  |
| لقد لسجٌ ميثاقٌ من الله بيننا  | وليس لمن لم يوف لله من عهد    |
| أفى الناس أمثالي أحبوا فحيهم   | كحبي أم أحببت من بينهم وحدى   |

وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما  
إذا ما دنتُ زدت اشتياقا وإن نأتُ  
لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى  
جزعتُ لنأى الدار منها وللبعد  
وكلّ محبٌ لم يزد فوق جُهدِه  
وقد زدتها فى الحب منى على الجهدِ

ثم التفتت إلى ابن عمه وقال له : يا أخى لو ملكت اختياري لكان ما قلت صوابا ، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولقد جئتُك لأمر أسألك أن لا تكدر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى ، فقال له : فإن كنت لا بد مهلكا نفسك فاعمل على زيارتها ليلا فإنها تخرج مع بنات عمها إلى ملعب لهن ، فأجئى معك حينئذ سرا ، ولى صديق من عشيرة بثينة ناوى عنده نهارا وأسأله مساعدتك على هذا ، فتقيم عنده أياما نهاراً وتجتمع معها بالليل ، فشكره .

ومضى روق إلى الرجل الذى من رطب بثينة فأخبره الخبر ، واستعهمده كتمانها ، وسأله مساعدته فيه ، فقال له : لقد جئتنى بإحدى العظام ويحك ! إن فى هذا معاداتى الحى جميعا إن فطن أحد به . فقال روق : أنا أتحرز فى أمره من أن يظهر . فوعده بذلك . ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة ، فأتيا الرجل فأقاما عنده ، وأرسل إلى بثينة بجارية له بخاتم جميل ، فدفعته إليها . فلما رأته عرفته . وتبعتهما فجاءته ، فتحدثا ليلتهما ، وكذلك فى ليلتين ثانية وثالثة . ثم ودعها وقال لها : عن غير بغض والله ولا ملل كان وداعى إياك . وشكر لمضيفه وانصرف مع ابن عمه .

## فى زى راع

جاء جميل إلى بثينة وقد اتخذ ثياب راع من رعاة الحى ، فلم يعرفه أحد ، ووجد عند زوجها ضيفانا له ، فانتبذ ناحية ، وسألته جارية من أنت؟ فقال : مسكين . وجلس وحده ، وطعم الضيفان طعام العشاء وتعشى وحده .

وبينما بثينة جالسة مع جواربها على صلاء النار وقد اضطجع الضيفان، وهم منتحون في جانب من البيت، فقال جميل:

هل البائسُ المَقْرورُ دَانٍ فَمُضْطَلِّ من النارِ أو مُعْطَى لحافاً فلا بَسُ

فقال بثينة لجاريتها: صوت جميل والله اذهبي فانظري. فرجعت إليها فقالت: هو والله جميل، قد جاء في ثياب راع. فشهمت بثينة شبهة سمعها القوم فأقبلوا يهرعون إليها. وقالوا لها ما لك: فطرحت ثوبا من حرير في النار وقالت: احترق ثوبي. فرجع القوم وأرسلت جاريتها إلى جميل، فتواعدا، وخرجت له، وبث كل منهما صاحبه وجدده. وما زالا حتى برق الصباح فودعها وهو يبكي أحز بكاء ويقول:

ألا أيها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى      أذا كَلَّفِ يُعْزِي بِحَبِّ كَمَا أُعْزِي  
هي البدر حسنا والنساء كواكب      وشَتَّانَ ما بين الكواكب والبدرِ

### أبو جميل ينصحه

شكا زوج بثينة وأهلها جميلا إلى الوالي فأباح لهم قتله إن وجدوه مع بثينة، فأعذروا إلى أهله مرارا وهو لا يرعوى ولا يزدجر عن الإمام بدار صاحبتة. وما أعيام أمره توجهوا إلى أبيه فناشدوه الله والرحم، وسألوه كف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به في بثينة، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع، ثم انصرفوا. فدعا به، فقال له: يا بني حتى متى أنت في ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل تغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهي مضرة لبعليها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فقولها لك إنما هو تليل وغرور. إن هذا لذل لك وضميم. وما أعرف أخيب حظا ولا أضيع عمرا منك، فأشددك الله إلا كففت وتأملت أمرك، وإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان لك سبيل إليها لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به ممن قُدِّر له، وفي النساء عوض. فقال له جميل: الرأي

ما رأيت والقول كما قلت، فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواد أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أصحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت. ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لقضاء قدر لى. وأنا سأمتنع من طروق هذا الحى والإمام بهم ولو مت كندا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه. وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه.

### جميل يحاول السلوان

نا خاف جميل على نفسه من قوم بثينة ونصحه أبوه ووعدته أن يمتنع من الإلزام بحيتها فكر ماذا يصنع، وهده تفكيره أن يرحل إلى الشام ويمدح خلفاء بنى أمية، فيصلوه؛ ولعله ينسى صاحبتة. ومدحهم ونال جوائزهم وظلت ذكرى بثينة لا تفارقه، وطالما أنشد:

منع النوم شدة الاشتياقِ      وأدكارُ الحبيبِ يومَ الفراقِ  
ولقد قلتُ يوم نادى المنادى      مستحناً برحلةٍ وانطلاقِ  
ليت لى اليومَ يا بثينةُ منكم      مجلسا للوداعِ قبل الفراقِ

وعاد أدراجه إلى قومه. وبلغ بثينة أنه عاد، فراسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها إليه ووجدتها به، وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها طويلا. وعرف أهلها أنها لقيته، فرصدوها وشدوا عليها حتى لا تغافلهم وتلقاه.

### حيلة فى اللقاء

انقطع التلاقى بين جميل وبثينة مدة، فركب بعيره، وخرج إلى الصحراء يروح عن نفسه، فلقي رجلا من بنى حنظلة فقال له: ممن أنت يا عبد الله،

فقال: رجل من بنى حنظلة، فقال: انتسب، فانتسب له. فقال له: هل لك في خير تصطنعه إلى، فوالله لو أعطيتني كل ما ترعى من إبلك ما كنت بأشكر منى لك عليه، فقال الرجل: نعم ومن أنت أولاً؟ فقال له: لا تسألني من أنا، ولا أخبرك، غير أنى رجل بينى وبين هذه العشيرة التى تنزل وراء هذا السفح القريب الذى تراه ما يكون بين بنى العم من بعض الموجدة فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجدهم فى مجلسهم فتنادى وتسالهم ناقة بيضاء غفلا من العلامات، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك، وإلا فاستأذنهم فى المرور بخيام الحى فإن المرأة والصبى قد يريان ما لا يرى الرجال، فتسالهم، ولا تدع أحداً تصيبه عينك ولا خيمة من خيامهم إلا طلبتها فيه.

فأتى الرجل القوم، فإذا هم مجتمعون على بعير ذبحوه، يقتسمونه، فلم وانتسب لهم ونشدهم (سالهم) ضالته، فلم يذكروا له شيئاً ولا أنهم رأوها، فاستأذنهم فى الخيام، وقال إن الصبى والمرأة يريان ما لا يرى الرجال، فأذنوا له، فأتى أقصاها خيمة، واستقراها خباء خباء، ينشد الناقة، فلا يجيبه أحد، حتى إذا انتصف النهار وآذاه حر الشمس وعطش وذهب لينصرف حانت منه التفاتة، فإذا بثلاثة خيام، فقال فى نفسه: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم رجع فقال: سوءة! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى، ثم آتته فأقول: عجزت عن ثلاثة خيام. فانصرف عامداً إلى أعظمها خيمة، فلم وسمع من يرد عليه السلام، وذكر ضالته، فخرجت إليه امرأة، وقالت له: يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتويت الشراب، فقال: أجل، فدخلت، فأتته بصحفة مفضضة، فيها تمر، وقدح مفضض فيه لبن، وقالت له: دونك، فتجمع وشرب من اللبن حتى روى، فقال لها: يا أمة الله، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل، فهل ذكرت من ضالتي شيئاً، فقالت: هل ترى هذه الشجرة فوق

التل؟ فقال: نعم، قالت: فإن الشمس غربت أمس وهي تُطيف حولها، ثم حال الليل بيني وبينها فلم أعرف عنها شيئا.

فقام الرجل وجزاها الخير وقال: والله لقد تغذيت ورويت، فخرج حتى أتى الشجرة، فأطاف بها، فلم ير للناقة من أثر، فأتى صاحبه، فإذا هو متلفع بكسائه في الإبل يغنى ببعض الشعر. فقال له: السلام عليك، قال: وعليك السلام، ما وراءك؟ فقال الرجل: ما ورائي من شيء، قال لا عليك، فأخبرني بما فعلت، فقص عليه القصة، حتى انتهى إلى ذكر المرأة وأخبره بالذي صنعت معه، فقال: قد أصبت ما كنت تطلب، فعجب الرجل من قوله، ثم سأله جميل عن صفة الإناءين: الصحفة والقدر، فوصفهما له، فتنفّس الصعداء وقال: قد أصبت ما كنت تطلب ويحك. ثم ذكر له الرجل الشجرة وأنها رأت الناقة تطيف بها، فقال له: حسبك.

وأمسى مع الرجل حتى أوت إبله إلى مباركها، وما زال معه حتى ظن أنه نام، فقام إلى حقيبة له، فاستخرج منها ثوبين فلبس أحدهما وتردى بالآخر، ثم انطلق عامدا نحو الشجرة. وقام الرجل من خلفه، فأر وراءه متخفيا حتى انتهى إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة، فاستتر بهن. ونظر فإذا صاحبة رفيقه عند الشجرة تنتظره. وقد جلست وجلس جميل منها غير بعيد، وكان الرجل بحيث يسمعهما. وكان أول ما طرق سمعه سلام جميل عليها وسؤاله عن حالها، سؤالا كريما بعيدا من كل ريبة، وسألته مثل سؤاله. ثم أمرت جارية معها، فقربت إليه طعاما، فلما أكل وفرغ قالت له: أنشدني ما قلت في غربتك، فأنشدها:

ألا ليت رَيْعَانَ الشَّبابِ جَدِيدُ  
وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنَ يَعْوُدُ  
فَنَغْنَى كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ  
قَرِيبُ وَمَا قَدْ تَبْدَلِينَ زَهِيدُ

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً  
 وهل ألقين فرداً بثينة مرةً  
 فقد تلتقى الأشتات بعد تفرق  
 علقت الهوى منها وليداً فلم يزل  
 وأفنيت عمري في انتظار نوالها  
 إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي  
 وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به  
 فلا أنا مردود بما جئت طالباً  
 وقلت لها: بينى وبينك فاعلمى  
 وقد كان حبيبكم طريفاً وتالداً  
 يموت الهوى منى إذا ما لقيتها

بوادى القرى إنى إذن لسعيد  
 تجود لنا من ودّها ونجود  
 وقد تُدرك الحاجاتُ وهي بعيد  
 إلى اليوم ينمى حبُّها ويزيد  
 وأبليتُ فيها الدهر وهو جديد  
 من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ  
 مع الناس قالت ذاك منك بعيدُ  
 ولا حبُّها فيما يبيدُ يبيدُ  
 من الله ميثاقُ له وعهود  
 وما الحبُّ إلا طارفٌ وتبيدُ  
 ويحيا إذا فارقتها فيعود

فقالته له: أحسنت ولا فض فوك. ولم يزالا يتحدثان ما يقولان هجرًا ولا سوءا إلى الصباح، فودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ثم انصرفا، فقام الرجل فمضى إلى إبله، واضطجع نائما، فجاء جميل، فقال له: حتى متى تنام، فقام الرجل وتوضأ وصلى وحلب إبله وأعانه جميل، وما لبث أن حدثه حديثه وانتسب له، فعرف أنه جميل وأن المرأة بثينة، وقال له: إنى قلت أبياتا فى منصرفى من عندها، فهل لك أن تذهب إليها وتنشدها؟ وقال الرجل نعم، فأنشده:

ألا ياليت شعري هل أبيتن ليلةً  
 ولو سألت منى حياتى بذلتها  
 كليتنا حتى نرى ساطع الفجر  
 وجدتُ بها لوكان ذلك من أمرى

ثم ودعه وانصرف. فذهب الرجل إلى خباء بثينة وسلم فبرزت له، فأنشدها البيتين فدمعت عيناها، ودعته فأكرمه.

## الوداع الأخير

أقام جميل مدة طويلة لا يستطيع الإنام بدار بثينة ولا لقاءها، وكان قد أضناه الجوى وأسقمه، فعزم على المضي إلى بلد ناء بعيد، لعله يتعزى عنها أو يسلوها. وكان الناس يكثرُونَ من الحديث عن عبد العزيز بن مروان والى مصر وكرمه وكثرة بذله وعطائه للشعراء، فعزم جميل على الرحيل إليه، ولكنه فكر فى بثينة وفى هذا الفراق الطويل، فمضى قاصداً إلى حبيها غير آبه بما قد يلقي من مكروه، وكانت جالسة أمام خباثها مع بعض صواحبها، وإذا برجل قد أقبل عليها، فسلم، وردت السلام وتأمّلته، فإذا هو جميل؛ فقالت دهشة: أجميل؟ فقال: نعم، فقالت: فيم جئت؟ قال: جئت أحدث عهداً بك وإنى راحل إلى مصر، وتحدثنا ساعة، ثم ودعها وهو يبكي منشداً:

|                                |                           |
|--------------------------------|---------------------------|
| أرى كل معشوقين غيرى وغيرها     | يلذآن فى الدنيا ويغبتطان  |
| أصلى فأبكي فى الصلاة لذكرها    | لى الويل مما يكتب التلكان |
| ضممت لها أن لا أهيّم بغيرها    | وقد وثقت منى بغير ضمان    |
| ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا | شكاية معشوقين يشتكيان     |
| يعيشان فى الدنيا غريبين أيّنا  | أقاما وفى الأعوام يلتقيان |

## طائف

انتجع حتى بثينة موضعا فى البادية، وبينما هى فى هودج تسير ليلاً، إذا بهاتف ينشد قول جميل:

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| رحل الخليلُ جِمالهم بسوادٍ   | وحَدَا على أثرِ البخيلة حادى |
| ما إن شعرتُ ولا علمتُ ببينهم | حتى سمعتُ به الغرابَ ينادى   |

قلم تتمالك أن رمت بنفسها وأهلها ينظرون، وبقيت تطلب المنشد فلا تقف عليه، فنادت: أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه؟ فلم يجيبها مجيب، فنادت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد عليها أحد شيئا، فقال لها صواحبها: أصابك يا بثينة طائف من الجن، فقالت: كلا لقد سمعت قائلا يقول، وأنشدت البيتين، قلن لها: نحن معك ولم نسمع شيئا. فرجعت وركبت مطيتها وهي حيرى والية العقل كاسفة البال، ثم سارت القافلة. فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بقول جميل:

أبى القلبُ إلا حبَّ بثْنَةَ لم يُردِ      سِوَاهَا وَحُبُّ الْقَلْبِ بَثْنَةَ لَا يُجْدِي  
إذا ما دنثُ زدت اشتياقا وإن نأت      جزعت لنأى الدارِ منها وللبعد

فرمت بنفسها وسعت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقالت: أيها الهاتف ارحم حيرتى وسكن عبرتى وأخبرنى عن جميل، فلم يرد عليها شيئا. فرجعت إلى رحلها وركبت، وسارت وهي ذاهبة العقل، وفي كل ذلك لا يخبرها صواحبها أنهن سمعن شيئا. فلما كانت الليلة الثالثة نزل أهلها في موضع وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين، فإذا الهاتف يهتف بقول جميل:

لقد فرح الواشون أن قَطَعَتْ حَبْلِي      بَثِينَةَ أَوْ أَدَبْتُ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ  
يقولون: مهلا يا جميل وإننى      لأقسم ما بى عن بثينة من مهل

فأقبلت نحو الصوت، فلما قربت منه لم تجد أحدا، فعادت وهي تبكى وتقول: تالله إن لجميل لثبا، فقال لها صواحبها: ما هذا يا بثينة؟ وما أصابك؟ إنها لهواجس مرت ببالك وخيالك فخففى عن نفسك ولا تظنى إلا خيرا.

## وفاة جميل

لقى عبد العزيز بن مروان والى مصر جميلا لقاء كريما ، ولكن القدر كان له بالمرصاد ، فلم يلبث أن مرض مرضا قضى فيه نحبه . ولما ثقل عليه المرض عادته رجل من عشيرته ، فلما دخل عليه نظر إليه وقال : يا ابن سعد ما تقول فى رجل لم يشرب خمرا قط ولم يأت محرما قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله منذ خمسين سنة؟ فقال : من الرجل؟ إني أظن والله أنه ناج لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ، قال جميل : أنا هو هذا الرجل ، فقال له صاحبه : أتزعم ذلك وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة ، فقال : أنا فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة قط وإن كان أكثر ما كان منى إليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبى فأستريح إليها . ثم أغمى على جميل ، وأفاق ، فأقبل على صاحبه ، فقال له : هل لك فى أن أعطيك كل ما أحلفه على أن تفعل شيئا أعهده إليك . فقال ابن سعد : حبا وكرامة ، قال : إذا أنا مت فخذ ثوبى هذا فاعزله جانبا ، وكل شىء سواه لك ، وارحل إلى رهط بثينة ، فإذا صرت بمنازلهم ، فاركب ناقتى هذه ، ثم البس ثوبى ذاك ، واشققه عليك ، وصح بهذه الأبيات :

صرخ النعى وماكنى ، بجميل وثوى بمصر ثواء غير قنول  
صرخ النعى بفارس ذى هممة حلو الشمائل للرجال قنول  
قومى بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

وأغمى على جميل فمات . فواراه صاحبه التراب ، ثم ركب ناقته ، وسار بها حتى نزل فى رهط بثينة ، فشق ثوبه الذى عينه له ، وصاح بالأبيات .

وسمعته بثينة، فصرخت صرخة تنبه عليها الحى، وسقطت لوجهها مغشيا عليها، واجتمع عليها الرجال والنساء يسألونها: مالخبر؟ فأنشدتهن أبيات جميل، ورفعت صوتها بالعويل والبكاء، وأقام النساء معها ثلاثة أيام، وحى تبكى جميلا وتندبه، وتحزّن الرجال وبكوه وقالوا: يرحمه الله فإنه كان عفيفا صدوقا. ولما انتهت الأيام الثلاثة حلفت بثينة أن لا تكتحل بعده ولا تضع مشطا فى رأسها ولا حلية ولا تفرق شعرها ولا تدهنه بطيب ولا تلبس قناعا مصبوغا ولا ثوبا منقوشا. وبقيت تبكيه وتقول:

وإن سلوى عن جميل لساعةً من الدهر ما حانت ولا حان حينها  
سواءً علينا يا جميل بن معمر - إذا مُتَّ - بأساء الحياة ولينها  
وما زالت تردد هذين البيتين؛ حتى قضى عليها اليأس والحزن،  
فلحقت به.



## قيس بن ذريح ولبنى

### أول الهوى بين قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من قبيلة كنانة، وكانت عشيرته تنزل في ضواحي المدينة، واشتهر بأنه رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، إذ أرضعته أمه في أثناء رضاعها له. وأول ما كان من حبه لبنى أنه مر يوماً في بعض حاجته بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وكان الرجال غائبين عن الحيّ فوقف على خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت فتاة مديدة القامة حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه. وشرب الماء، فقالت له: أتنزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فذبح له شاة وأكرمه.

وانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وذاع بين الناس ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتد وجده بها، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفّت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقي من حبها وشككت إليه مثل ذلك، فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

### زواج العاشقين

ذهب قيس إلى أبيه ذريح وأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه لبنى، فأبى عليه، وقال: يا بني، عليك بإحدى بنات عمك، فهن أحق بك. وكان ذريح

كثير المال موسرا، فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة. ولما سمع قيس من أبيه ذلك ساءه ماخطبه به. فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب. فأتى رضيعه الحسين بن علي وابن أبي عتيق (حفيد أبي بكر الصديق) وكان صديقه، فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبواه. فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبي لبني. فلما بصر به أعظمه ووثب إليه، وقال له: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟ هلا بعثت إلى فأتيتك، فقال: إن الذي جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبا ابنتك لقيس بن ذريح، فقال: يا ابن رسول الله، ما كنا لنعصى لك أمرا وما بنا عن قيس رغبة. ولكني أحب أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإننا نخاف إن لم يتسع أبوه في هذا أن يكون عارا وسبّة علينا. فأتى الحسين ذريحا وقومه وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاما له، وقالوا له مثل قول أبي لبني. فقال الحسين لذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبني لابنك قيس. فقال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وخرج ذريح مع الحسين في وجوه من قومه، حتى أتوا حى لبني، فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها، فزوجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك. وأقاما معا سعيدين لا ينكر أحد منهما من صاحبه شيئا.

## غيرة الأم

كان قيس أبر الناس بأمه، فألهته لبني وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها وقالت لأبيه: لقد شغلته هذه المرأة عن برى. وانتظرت حتى مرض قيس مرضا شديدا، فلما برئ من علته قالت لزوجها ذريح: لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا له، وقد حُرّم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال فيصير مالك إلى أقربائك، فزوجه بغيرها، فلعل الله أن يرزقه

ولدا، وألحت عليه في ذلك. فأمهل قيساً مدة حتى إذا خلا به يوماً قال له: يا قيس إنك اعتللت هذه العلة، فحفت عليك، ولا ولد لك ولا لى سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك، لعل الله أن يهب لك ولداً تقرُّ به عينك وأعيننا، فقال له قيس: لست متزوجاً غيرها أبداً. فقال له أبوه: إن فى مالى سعة، فتزوج معها أخرى، فقال قيس: لا أسوءها والله بشيء أبداً، فقال له أبوه: فإنى أقسم عليك إلا طلقتها، فأبى، وقال: الموت والله أسهل على من ذلك، ولكنى أخيرك خصلةً من ثلاث خصال، قال أبوه: وما هى؟ قال: تتزوج أنت، فلعل الله أن يرزقك ولداً غيرى، قال: ما عندى فضلة لذلك. قال قيس لأبيه: فدعنى أرتحل عنك بلبنى واصنع ما كنت صانعا لومت فى علتى. قال أبوه: ولا هذه. قال قيس: فأدع لبنى عندك وأرتحل عنك، فلعلى أسلوها، فإنى ما أحب بعد أن تكون نفسى طيبة أنها فى خيالى: فقال أبوه: لا أرضى إلا أن تطلقها، وحلف لا يكته (لا يستره) سقف بيت أبداً حتى يطلق لبنى. وكان ذريح يخرج، فيقف فى حر الشمس، ويجئ قيس فيقف إلى جانبه، فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس، حتى يسقط الظل، فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى معه، وتقول له: يا قيس لا تطع أباك، فتهلك وأهلك معك، فيقول: ما كنت لأطيع أحداً فيك أبداً.

### طلاق لبنى

ما زال أبو قيس وأمه يلحان عليه فى طلاق لبنى، حتى استجاب إليهما على كره منه، ولم يكده يصنع حتى طار عقله ولحقه مس الجنون، وأخذ الشعر ينفجر على لسانه يعبر به عن لواعج قلبه، يتأسف ويبكى أشد بكاء، ويقول:

يقولون لُبْنَى فتنَّةٌ ، كنتَ قبلُها      بخيرٍ فلا تُنذِمَ عليهما وطلَّق  
 وَدَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنسى عَصِيَّتَهُم      وَحَمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلَّ مُوبِقٍ  
 وَكَلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرَ زَاخِرُ      أَبَيْتُ عَلَى أَتْبَاجِ مَوْجِ مُغْرَقِي  
 كَأَنى أرى النَّاسَ الْمُحَيِّينَ بَعْدَهَا      عُصَارَةَ مَاءِ الْحَنْظَلِ الْمُتَفَلِّقِ  
 وَتُنَكَّرُ عَيْنِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظِرٍ      وَيَكْرَهُ سَمْعِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

ولما علمت لبنى بخبر طلاقها من قيس أرسلت إلى أبيها فأعلمته الخبر، فأقبل بهودج على ناقه وبابل تحمل أثائها ورأى ذلك قيس فأقبل على جاريتها، فقال: ويحك ما دهاني فيكم، فقالت له: لا تسألني وسل لبنى، فذهب ليلم بخبائها فيسألها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من عشيرته فقالت له: ما لك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل، وهذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا، فسقط مغشيا عليه لا يعقل، ثم أفاق وهو ينشد:

وَإِنسى لِمُغْنٍ دَمَعِ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ      جِدَارَ الذى قد كان أو هو كائنُ  
 وَقَالُوا غَدًا أو بعد ذاك بليلة      فراقُ حبيبٍ لم يَبِينُ وَهُوَ بائنُ  
 وَمَا كُنْتُ أَخشى أن تكون منيَّتِي      بِكَفْيِكَ إِلَّا أن ما حَانَ حائِنُ

وسقط غراب قريبا منه، فجعل ينعق مرارا، فتطير منه أشد تطير، ولم يلبث أن قال:

لقد نادى الغرابُ ببيْنِ لُبْنَى      فطار القلبُ من حذر الغرابِ  
 وقال: غدا تباعدُ دارُ لبنى      وتنأى بعدُ وُدُّ واقترابِ  
 فقلت: تعست ويحك من غرابٍ      وكان الدهرُ سعْيِكَ فى اغترابِ

وأزف وقت الرحيل، ورآهما وقومها يدخلونها هودجها فجعل يبكي

وينشج أحرَّ نشيج، ويقول:

ألا يا غرابَ البَيْنِ ويحك نَبَّئني      بعلمك من لبني وأنت خبيرُ  
فإن أنت لم تخبر بما قد علمته      فلا طرت إلا والجناحُ كسيرُ  
وَدُرْتُ بأعداءِ حبيبك فيهمُ      كما قد تراني بالحبيب أدورُ

ولما ارتحل قومها اتبعها مليا، ثم وقف لنا يعلم من أن أباهما سيمنعه من  
المسير معها، وأخذ ينظر إليهم ويبكى حتى غابوا عن عينه، وهو ينشد:

بانث لبيني فأنت اليوم متبول      والرأى عندك بعد الحزم مخبولُ  
أستودع الله لبني إذ تفارقتي      بالرغم مني وقول الشيخ مفعولُ

وكرر راجعا، وفي أثناء رجوعه نظر إلى أثر خف بعيرها فأكب عليه يقبله  
ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها. فلامه أهله على ذلك وعنفوه على  
تقبيل التراب، فقال:

وما أحببت أرضكم ولكن      أقبل إثر من وطئ الترابا  
لقد لاقيت من كلفى بلبنى      بلاء ما أسيغ به الشرابا  
إذا نادى المنادى باسم لبني      عيبتُ فما أطيق له جوابا

ولما جنَّ عليه الليل وانفرد وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل  
يتململ فيه تململ اللدوغ ثم وثب حتى أتى موضع خباتها، فجعل يتمرغ  
فيه ويبكى ويقول:

بِتْ والهَمْ يا لُبَيْئني ضجيعي      وجرث - مذ نأيت عني - دموعي  
وتنفستُ إذ ذكرتك حتى      زالت اليوم عن فؤادي ضلوعي  
يا لُبَيْئني فدتكِ نفسي وأهلي      هل لدهرٍ مضى لنا من رجوع

وأصبح فخرج متوجها نحو الطريق الذي سلكته يتنصم رواثحها، فساحت  
له ظبية فقصدها، فهربت منه، فأنشأ يقول:

ألا يا شبة لبني لا تُراعى      ولا تتيَّمي قُلَّ القِلاعِ  
وأصبحتُ الغداة ألوم نفسي      على شيءٍ وليس بمستطاعِ  
وقد عشنا نلذ العيش حيناً      لو إنَّ الدهر للإنسان راعِ  
ولكنَّ الجميع إلى افتراقٍ      وأسبابُ الحتوفِ لها دواعِ

وظل يعاتب نفسه في طاعته أياه في طلاق لبني، ويقول: ما كان على  
لو اعتزلته وأقمت في حبيها أو في بعض بوادي العرب أو عصيته فلم أطمعه،  
هذه جنائتي على نفسي، وها أنذا ميت فمن يرد روحى إلي. وكلما قرع نفسه  
وأنبها بلون من التقرير والتأنيب بكى أحر بكاء، وألصق خده بالأرض ووضع  
على آثارا، وقال:

وكلَّ مصيبات الزمان وجدتها      سوى فرقة الأحباب هيَّنة الخطبِ

### غربان النوى

ظلت لبني حزينه على قيس بعد رحيلها، لا يهنأ لها عيش، وكانت  
ما تزال تسأل عنه من يلم بدارها من عشيرته فيصفون لها تغير حاله وما عليه  
من الهوى والصبابة بها، فكانت تستنشدهم أشعاره، فينشدونها، وهي تبكى  
وتنوح على مصيرها ومصيره، وأنشدت ذات يوم قوله في غراب البين:

ألا يا غرابَ البينِ قد طرت بالذى      أحاذر من لبني فهل أنت واقِعُ

فأمرت غلاما لها ألا يرى غراب بين إلا يصيده، وهو غراب أسود صغير،  
فكان ما يزال يأتيها ببعض الغربان فتتناولها وتضربها، وتنشد البيت.

وأتاها غلامها يوما بأربعة غربان، فلما رأتهن بكى وصرخت وكتفتهن  
وجعلت تضربهن بالسوط، ثم أمسكت بغراب منهن، فتفتت ريشه،  
وهي تصيح:

لعمري لقد صاح الغراب ببينهم فأوجع قلبي بالحديث الذى يبدي  
 فقلت له : أفصحت ، لا طرت بعدها بريشٍ فهل للقلب ويحك من رَدُّ  
 ثم أخذت الثانية فشدت فى رجليه خيطين وباعدت بينهما ، وجعلت تقول له :  
 أتبكي بلا دمع وتفرق بين الألاف بلا حق ، فمن أحق بالقتل منك ، وأنشدت :  
 ظعن الذين فراقهم أتوقَّع وجرى ببينهم الغرابُ الأَبْقَعُ  
 فزجرته أن لا يفرِّخَ بَيْضَهُ أبداً ويصيحَ واقعاً يتفجَّعُ  
 إن الذين نعبت لى بفراقهم هُم أسهدوا ليلى التمام فأوجعوا  
 ثم أخذت الثالث ففتفت ريشه ، حتى كأن لم يكن عليه ريش قط ، ثم ضربته  
 حتى مات ، وصاحت تنشد :

ألا يا غرابَ البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جديرُ  
 فبين لنا ما قلت إذ أنت واقِعُ وبيِّن لنا ما قلت حين تطير  
 فإن يك حقاً ما تقول فأصباحُ همومك شتى والجناح كسير  
 ولا زلت مكسورا عديما لناصِرٍ كما ليس لى من ظائى نصير  
 وكسرت جناحه ، وأمرت بالرابع فأخذت تضربه حتى مات وأنشدت بأعلى  
 صوتها قول قيس :

لقد نادى الغرابُ ببيِّن لُبْنَى فطار القلب من حَذَرِ الغرابِ  
 فدخل أبوها فرآها على تلك الحال ، فقال لها : ما دعاك إلى ما أرى؟ قالت :  
 دعانى أن ابن عمى وحبيبي قيسا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن . فقال إنك  
 وابن عمك تظلمان الغريان ، ألم تسمعى قول القائل :

نعب الغرابُ برؤية الأحبابِ فلذاك صرت أحبُّ كلِّ غرابِ

قالت: ليس البيت يا أبى كما أنشدته، وإنما هو

نَعَبَ الْغَرَابُ بِفِرْقَةِ الْأَحْبَابِ فَلِذَاكَ صِرْتُ عَدُوًّا كُلِّ غَرَابٍ

فأليت لا أظفر بغيراب إلا قتلته. فأظهر أبوها لها الغضب، وتركها وذهب إلى أمها فشكا لها سوء فعلها وقولها وما تشعر به من حسرة ولوعة.

تأججت نيران الغرام في نفس قيس بن ذريح وقلبه، وكأنما كان طلاقه لابنى وفراقها له الشرارة التى اندلعت منها هذه النيران، فهى لا تخبو فى فؤاده أبدا، مهما بللتها دموعه، وقد انطلق يصيح:

أَحْبَبُكَ أَصْنَافًا مِنَ الْحَبِّ لَمْ أَجِدْ لَهَا مَثَلًا فِي سَائِرِ النَّاسِ يُوصَفُ  
فَمَنِئِنَّ حَبًّا لِلْحَبِيبِ وَرَحْمَةً بِمَعْرِفَتِي مِنْهُ بِمَا يَتَكَلَّفُ  
وَمَنِئِنَّ أَنْ لَا يَعْزِضَ الذَّهْرَ ذِكْرُهَا عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كَادَتِ النَّفْسُ تَتَلَفُ  
وَحَبُّ بَدَا بِالْجِسْمِ وَاللَّوْنُ ظَاهِرٌ وَحَبُّ لَدَى نَفْسِي مِنَ الرُّوحِ أَلْفُ

وظلت ذكرياته العذبة معها لا تبرح ذاكرته، فهى لا تختفى من أمام ناظره، ولا تختفى عيناها الساحرتان حتى فى النوم وإنه لينشد:

وَإِنِّي لِأَهْوَى النَّوْمَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ  
تُحَدِّثُنِي الْأَحْلَامُ أَنِّي أَرَاكُمْ فَيَا لَيْتَ أَحْلَامَ الْمَنَامِ يَقِينُ  
شَهِدْتُ بِأَنِّي لَمْ أَحُلْ عَنْ مَوْدَةٍ وَأَنْتِ بِكُمْ لَوْ تَعْلَمِينَ صَنِينُ  
وَأَنْ فؤادى لا يلبين إلى هوى سَوَاكِ وَإِنْ قَالُوا بَلَى سَيَلِينُ

وظل دائم التطلع إلى أيامه الماضية معها، وكان يتحسر على ما فرط من طلاقها وفراقها ويقول:

أَتَبْكِي عَلَى بُنْي وَأَنْتِ تَرَكْتَهَا وَكُنْتُ كَأَبٍ حَتَفَهُ وَهُوَ طَائِعُ  
كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا وَإِنْ كَانَ فِيهَا النَّاسُ قَفْرَ بِلَاقِعُ

ألا إنما أبكى لنا هو واقع  
وما كل ما منتك نفسك خالياً  
فهل جزعى من وشك ذلك نافع  
تُلاقِي ولا كل الهوى أنت تابع  
نهارى نهار الوالهيـن صباةً  
وليلَى تنبو فيه عنى المضاجع  
وقد كنتُ قبل اليومِ جُلُوءاً وإنما  
تُقَسِّم بين الهالكين المَصارعُ

### خروج قيس إلى ديار لبنى

وإنا أضنى الحب قيساً رق له بعض رفاقه القدماء، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديارها لعله يحظى بلبانها، فخرج معهم، وهو ينشد:

لقد عدتُنتى يا حُبُّ لُبْنَى  
فَقَعَّ إما بموتٍ أو حياةٍ  
فإن الموت أروحُ من حياةٍ  
تدوم على التباعـد والشَتاتِ

وما زالوا يجدُّون فى السير حتى انتهوا إلى ديارها، فأقاموا معه حتى لقيها، فلما وقعت عينه عليها خرَّ مغشياً عليه، ونا أفاق أنشأ يقول:

اللّه يدرى وما يدرى به أحدُ  
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم  
ماذا أجمجم من ذكراكِ أحياناً  
إلا على العهد حتى كان ما كانا  
إن تُصرى الحبل أو تُمسي مُفارقةً  
فالدهر يُحدث للإنسان ألواناً

ثم ودعها ومضى مع رفاقه.

### لقاء ثان فى الحج

وأشار قوم على قيس بالحج لعله يسـلو لبنى، فحج وأتفق أن حجبت هى الأخرى فى تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها، فدهش وبقي واقفا مكانه ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبـلغه السلام وتسأله عن خبره، فوجدته جالسا وحده يبكى وينشد:

ويومٌ مِنِّي أَعْرَضَتِ عَنِّي فَلَمْ أَقْلِ      بِحَاجَةِ نَفْسٍ عِنْدَ لُبْنَى مَقَالِهَا  
وَفِي الْيَأْسِ لِلنَّفْسِ الْمَرِيضَةِ رَاحَةً      إِذَا النَّفْسُ رَامَتْ حُطَّةَ لَا تَنَالِهَا

ودخلت المرأة خباءه وجعلت تحدثه عن لبنى ويحدثها عن نفسه ملياً، ولم تعلمه أن لبنى أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام، فامتنعت عليه، فأنشأ يقول:

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَسَلَّمِي      فَأَيَّةُ تَسْلِيمِي عَلَيْكِ طَلُوعُهَا  
بِعَشْرِ تَحِيَّاتٍ إِذَا الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ      وَعَشْرٌ إِذَا أَصْفَرَتْ وَحَانَ رَجُوعُهَا  
وَلَوْ أَبْلَغْتَهَا جَارَةً قَوْلِي أَسَلَّمِي      بَكَتْ جَزَعًا وَارْفَضَ مِنْهَا دَمُوعُهَا  
وَبَانَ الَّذِي تَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ فِي الْحَشَا      إِذَا جَاءَهَا عَنِّي حَدِيثُ يَزُوعُهَا

وقضى الناس حجهم وانصرفوا ولم يأته رسول منها، لأن قومها رأوه وعلموا به، فخشيت أن تراسله، فقال:

تَمْنَيْنِي نَيْلًا وَتَلْوِينِي بِهِ      فَنَفْسِي شَوْقًا كُلَّ يَوْمٍ تَقَطُّعُ  
وَقَلْبِي قَطْ مَا يَلِينُ لِمَا يَرَى      فَوَاكِبِي قَدْ طَالَ هَذَا التَضْرُّعُ  
أَخْبَرْتُ أَنِّي فِيكَ مَيْتٌ حَسْرَتِي      فَمَا فَاضَ مِنْ عَيْنِيكَ لِلْوَجْدِ مَدْمَعُ  
وَلَكِنْ لَعَمْرِي قَدْ بِكَيْتِكَ جَاهِدًا      وَإِنْ كَانَ دَائِي كُلُّهُ مِنْكَ أَجْمَعُ  
وَمَا غَشِيَتْ عَيْنِيكَ مِنْ ذَاكَ عِبْرَةٌ      وَعَيْنِي عَلَى مَا بِي بِذِكْرَاكِ تَدْمَعُ

وبلغتها الأبيات فجزعت جزعا شديدا وبكت بكاء كثيرا. ثم خرجت إليه ليلًا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن يقتلك قومي، فأنا أتحامك لذلك، ولولا هذا ما افترقنا، وودعته وانصرفت.

### مرض قيس

عاد قيس إلى قومه بعد رؤيته لبنى في الحج وقد سألت نفسه حسرات، فأنكروه وسألوه عن حاله، فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على

الموت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشدوه الله، فقال: ويحكم أتروني أمرضت نفسي أو وجدت لها سلوة لقد اخترت الهم والبلاء وهذا ما اختاره لي أبواي وابتلياني به.

ولما رأت أمه تماديه في مرضه وتعلقه بلبنى أرسلت إليه بفتيات من عشيرته يعبن عنده لبنى ويلمنه على جزعه وبكائه فأتينه واجتمعن حواليه، وجعلن يمازحنه ويعبن لبنى عنده، فلما أظن في ذلك أقبل عليهن وقال:

يَقْرُ بعيني قُرْبُها وَيَزِيدُنِي بها كَلْفًا مَنْ كان عندي يَعْيبُها  
وكم قائل قد قال تُبُّ فَعْصِيَّتُهُ وتلك لَعْمَرى توبَةً لا أتوبها  
فيا نفسُ صبراً لسبتِ واللّه فاعلمي بأوّلِ نفسٍ غاب عنها حبيبُها

فانصرفن عنه إلى أمه فأياسنها من سلوته.

وصنع أبوه صنيع أمه، فسأل بعض فتيات من الحي أن يُعَدِّنه ويحدثنه لعله يتسلى عن لبنى أو يتعلق بإحداهن، ففعلن ذلك. ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأظن السؤال عن سبب علته فقال:

عِيدَ قَيْسٍ من حبِّ لُبْنى ولُبْنى داءُ قَيْسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ  
وإذا عَادَنى العوائِدُ يوماً قالت العين لا أرى من أريدُ  
ليت لُبْنى تَعُودَنى ثم أَقْضَى إنْها لا تعود فيمن يعودُ  
وَيُحِّ قَيْسٍ لقد تَضَمَّنْ مِنْها داءُ حَبْلِ فالقلبُ مِنْه عميدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلة؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فقال وهو يبكي متحسرا:

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحِها قبلَ حَلَقِنَا ومن بعدِ ما كنا نطافاً وفي المهدي

فزاد كما زدنا فأصبح نامياً  
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ  
وليس إذا مُتُّنا بِمُنْصَرِمِ العبيدِ  
وزائرُنا فى ظُلْمَةِ القبرِ واللَّحْدِ

فقال له الطبيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوي والمعاييب وما تعافه النفس من بنى آدم؛ فإن النفس تنفر حينئذ وتسلو ويخف ما بها، فقال يجيبه:

إذا عُبْتُها شَبَّهْتُها البدرَ طالعا  
لقد فَضَّلْتُ لبنى على الناسِ بثلما  
وحسبك من عيب لها شَبَّهُ البدرِ  
على ألف شهر فَضَّلْتُ ليلةَ القَدْرِ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة فأنبه ولامه وقال له: يا بنى، الله الله فى نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا، فأنشد:

وفى عُرْوَةَ العُدْرَى إن متُّ أسوءُ  
وبى مثلُ ما ماتا به غيرِ أننى  
وعمرو بن عَجَلانِ الذى قتلْت هندُ  
هل الحبُّ إلا عَبْرَةٌ بعد زفرةٍ  
لنا غلْمٌ من أرضكم لم يكن يبدو  
وفيضُ دموعٍ تَسْتَهْلُ إذا بدا

### زواج قيس بأخرى

ولما طال على قيس مرضه أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعنه يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خِفْتُ أن لا تَقْنَعِ النفسُ بعدها  
وأزجرُ عنها النفسُ إذ حيل دونها  
بشئٍ من الدنيا وإن كان مَقْنَعَا  
وتأبى إليها النفسُ إلا تَطْلَعَا

فأعلمهم أبوه بما رد عليه، قالوا: فأمره بالمسير فى أحياء العرب والنزول عليهم، فلعل عينه أن تقع على فتاه تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار

حتى نزل بحى من قبيلة فزارة، فرأى جارية حسناء قد حسرت قناع حرير عن وجهها وهى كالبدر ليلة تمامه، فقال لها: ما اسمك يا جارية، قالت: لبنى، فسقط على وجهه مغشياً عليه، فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون! فأفاق: فسألته من هو فعرفها بنفسه، فقالت: لقد علمت أنك قيس، ولكنى نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا، وقدمت إليه طعاما، فأصاب منه قليلا. وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا، فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب ناقته حتى رده إلى منزله، وحلف عليه ليقيمن عنده شهرا، فقال له: لقد شققت على ولكنى سأتابع هواك والفتى الفزارى يزداد عجبا بحديثه وعقله وشعره، فعرض عليه الصُّهر، فقال له: يا هذا إن فيك لرغبة، وإنى لمعجب بأختك، ولكنى فى شغل لا يُنتفع بى معه.

ولم يزل الفتى الفزارى يعاوده فى طلب مصاهرته والحي يلومونه ويقولون له: قد خشينا أن يصيرعلينا فعلك سُبَّةً، فقال: دعونى، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبين الفتى على أخته المسماة لبنى، وقال له الفتى: أنا أسوق عنهما صداقها (المهر) فقال قيس بن ذريح: أنا والله يا أخى أكثر قومى مالا، فما حاجتك إلى تكلف هذا، أنا سائر إلى قومى وسائق إليها المهر.

وتوجه قيس إلى أهله وأعلم أباه بالذى كان منه، فسرَّه، وساق له مهرا كبيرا. فرجع إلى الفزاريين وأقام عندهم حتى أدخلت عليه زوجته. فلم يروه هشا إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أياما كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الرحيل إلى قومه والبقاء عندهم أياما، فأذنوا له فى ذلك.

ومضى قيس إلى المدينة وكان له صديق بها من الأنصار، فأتاه، فأعلمه الأنصارى أن خبر تزويجه بلغ لبني فغمَّها وقالت: إنه لغدار، ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى تزويجي فأنا الآن أجيبهم ما دام قد نكث الوعد ونقض العهد.

### زواج لبنى

كان أبو لبنى شكا قيسا إلى معاوية، وقال له إنه يتعرض لابنته بعد طلاقها، فكتب معاوية إلى والى المدينة - كما يقال - أن يهدر دمه إن تعرض لها أو ألم بها وأن يشتدَّ في ذلك، وأمر أباهما أن يزوجها رجلا سماه له من أهل المدينة، فوجهت لبني رسولا إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره، فقال:

فإن يججُبوها أو يحلُّ دون وصلها      مقالةً واشٍ أو وعيدُ أمير  
 فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البُكا      ولن يُذهبوا ما قد أجنُّ ضميري  
 إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى      ومن حُرِّقَ تعادنى وزفير  
 ومن ألمٍ للحبِّ فى باطن الحشا      وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصير

وعرض أبو لبنى عليها الزواج بالرجل الذى سماه معاوية، فلم تمتنع، لما علمت من زواج قيس، فزوجها أبوها منه، وزفت عليه وكان نساء الحى يتغنين ليلة زفافها:

لبنى زوجها أصبَحَ لا حُرَّ يوازيه  
 له فضلٌ على الناس بما باتت تُناجيه  
 وقيسٌ مئتٌ حى صريعٌ فى بواكيه  
 فلا يُبِعده الله وبعدا لتواعيه

وسمع بذلك كله قيس فجزع جزعا شديدا، وركب من فوره حتى أتى ديار قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن ها هنا، وقد رحلت لبنى مع زوجها، وأصبح بينكما حجاب صفيق، فبكى وأنشد:

وإن تك لبني قد أتى دون قريبا      حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ  
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا      ونُبصر قَرْنَ الشمسِ حين تزولُ  
وأرواحنا بالليل في الحىّ تلتقى      ونعلم أننا بالنهار نَقيلُ  
وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا      سماءُ نرى فيها النجوم تجولُ

وجعل الفتیان يعارضونه بأن لبني تزوجت وانتقلت مع زوجها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خباثها، فنزل عن راحلته، وجعل يتمرغ فيه ويضع خده على ترابه ويبكى أحزاً بكاء، ثم قال:

إلى الله أشكو فَعَدَّ لبني كما شكا      إلى الله فَعَدَّ الوالدينِ يتيمُ  
يتيمٌ جفاه الأقرىون فجسمه      نَحيلٌ وعهدُ الوالدينِ قديمُ  
تهيَّضني من حبِّ لبني علائقُ      وأصنافُ حُبِّ هؤلُهِن عظيمُ  
ومن يتعلق حُبِّ لبني فزاده      يُمُتُّ أو يَعِشُ ما عاش وهو كليمُ

## رسول من لبني

ولما سمعت لبني بما حدث من قيس بن ذريح في ديار قومها بعد زواجها أرسلت إليه رسولا وقالت له: استنشده شعره، فإن سألك عن نسبك فانتسب له في بنى خزاعة، فإذا أنشدك شعرا فيّ، فقل له: لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تتزوج بعدك؟ واحفظ ما يقوله لك حتى ترده عليّ. فأتاه الرسول فسلم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشام واستنشده، فأنشده قوله:

تَكَادُ بِلَادُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَعْمَرٍ      بِمَا رَحَبَتْ يَوْمًا عَلَيَّ تَضِيقُ  
تَكْذِبُنِي بِالوَدِّ لُبْنَى وَلَيْتَهَا      تُكَلِّفُ مِنِّي مِثْلَهُ فَتَذُوقُ  
وَإِنِّي وَإِنْ حَاوَلْتَ صَرْمِي وَهَجْرَتِي      عَلَيْكَ مِنْ أَحْدَاثِ الرُّدَى لَشَفِيقُ  
وَلَمْ أَرِ أَيَّامًا كَأَيَّامِنَا التِّي      مَرَزَزْنَا عَلَيْنَا وَالزَّمَانَ أُنِيقُ  
وَحَدَّثْتَنِي يَا قَلْبُ أَنْكَ صَابِرُ      عَلَى الْبَيْنِ مِنْ لُبْنَى فَسَوْفَ تَذُوقُ  
فَمَتَّ كَمَدًا أَوْ عَشَّ سَقِيمًا فَإِنَّمَا      تَكَلَّفْنِي مَا لَا أَرَاكَ تَطْبِيقُ  
وَإِنْ تَكْ لِمَا تَسْلُ عَنْهَا فَإِنِّي      بِهَا مُعْرَمٌ صَبُّ الْفَوَادِ مَشُوقُ  
سَعَى الدَّهْرِ وَالْوَأَشُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا      فَقَطَّعَ حَبْلَ النُّوَصْلِ وَهُوَ وَثِيقُ

فقال له الرجل: فلم تزوجت بعدها؟ فأخبره الخبر وحلف له أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوجها وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها وأنه ما مدَّ يدا إليها ولا كلمها. فقال له الرجل: فإني جار لها، وإنها من الوجد بك على حال قد تمنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك، فحملني إليها ما شئت أؤديه إليها، فقال قيس له: تعود إلى إذا أردت الرحيل، فعاد إليه لما عزم على الرحيل، فقال: تقول لها:

أَلَا حَيَّ لُبْنَى الْيَوْمَ إِنْ كُنْتَ غَادِيَا      وَأَلِيمٌ بِهَا مِنْ قَبْلِ أَلَا تَلَاقِيَا  
وَإِنْ أَحْيَى أَوْ أَهْلَكَ فَلَسْتُ بِزَائِلٍ      لَكُمْ حَافِظًا مَا بَلَّ رَيْقُ لِسَانِيَا  
أَصَوْنُكَ عَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ مِصْنَةً      وَأَخْشَى عَلَيْكَ الْكَاشِحِينَ الْأَعَادِيَا  
تَسَاقَطُ نَفْسِي جِئِينَ أَلْقَاكِ أَنْفُسًا      يَرِدْنَ فَمَا يَصُدُّرْنَ إِلَّا صَوَادِيَا  
وَبَيْنَ الْحِشَا وَالنَّخْرِ مِنِّي حَرَارَةٌ      وَلَوْعَةٌ وَجِدٍ تَتْرِكُ الْقَلْبَ سَاهِيَا  
جَرَعْتُ عَلَيْهَا لَوْ أَرَى لِي مَجْزَعًا      وَأَفْنِيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَوْ كَانَ فَانِيَا  
تَمَرُّ اللَّيَالِي وَالشُّهُورِ وَلَا أَرَى      زُلُوعِي بِهَا يَزِيدَا إِلَّا تَمَادِيَا  
أَلَا إِنَّهَا صَدَّتْ وَحُمِلَتْ مِنْ هَوَى      لَهَا مَا يَزُودُ الشَّامَخَاتِ الرُّوَاسِيَا

## لقاء على غير وعد

أخذ قيس بعض إبل له ، وتوجه بها إلى المدينة ليبيعهما ، ويقضى بثمنها بعض حوائجها ، وقدم المدينة ، وبينما هو يعرض إبله إذ ساومه زوج لبنى فى ناقة من نوقه وهما لا يتعارفان ، فباعه إياها ، فقال له إذا كان غد فأتنى فى دارى ، فاقبض الثمن ، ووصف له داره . ومضى زوج لبنى إليها فقال لها : إنى ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا ليقبض ثمنها ، فأعدى له طعاما ، ففعلت .

فلما كان من الغد جاء قيس فصوّت بالخدام : قولى لسيدك : صاحب الناقة بالباب . فعرفت لبنى صوته ، فلم تقل شيئا ، فقال زوجها للخدام : قولى له : ادخل ، فدخل ، فجلس . فقالت لبنى للخدام : قولى له يا فتى ما لى أراك أشعث أغبر؟ فقالت له ذلك ، فتنفس ، ثم قال لها : هكذا تكون حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة وبكى . فقالت لها لبنى : قولى له : حَدَّثْنَا حديثك . فلما ابتدأ يحدث به كشفت لبنى الحجاب ، وقالت له : حسبك قد عرفنا حديثك .

وبهت قيس ساعة لا يتكلم ، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج ، فناداه زوج لبنى ، ويحك ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك ، وإن شئت زدناك . فلم يرد عليه ، وخرج فركب بعيره ومضى . وقالت لبنى لزوجها : ويحك هذا قيس بن ذريح ؛ فقال لها ما عرفته . وجعل قيس يبكى فى طريقه ، ويندب نفسه . وينشد :

أتبكى على لُبْنَى وأنت تركتها      وكنتَ عليها بالمَلا أنت أقدُرُ  
فإن تكن الدنيا بلُبْنَى تقلبت      علىّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ  
لقد كان فيهما للأمانة موضعُ      وللروح مُرتادٌ وللعين منظرُ

وللحائم العطشانِ رِيٌّ بريقِها      وللفرح المختالِ خمْرٌ ومُسْكِرُ  
كأنِّي في أرجوحةٍ بينَ أَحْبَلٍ      إذا ذُكِرَتْ منها على القلبِ تَخَطَّرُ

### زوج لبنى يؤنبها

اشتهر أمر قيس في المدينة وغمّي في شعره المغنون من أمثال معبد ولم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بشعره فأطربه وحزن لقيس مما به. وجاء لبني زوجها فأنبأها على ذلك وعاتبها، وقال: قد فضحتني بذكرك، فغضبت، وقالت: يا هذا إنني والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك ولا دُئس أمرى عليك أحد، ولقد علمت أني كنت تزوجته قبلك وأنه أكره على طلاقى. والله ما قبلت التزويج إلا بعد أن أهدر السلطان دمه إن ألمّ بحينا، فخشيت أن يحمله ما يجد من حبه على المخاطرة، فيقتله أهلى، فتزوجتك. وأمرك الآن إليك، ففارقنى إن شئت. فأمسك عن جوابها ولام نفسه، وجعل يأتبها بجوارى المدينة يغنيها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك، فلا تزداد إلا تماديا وبعدا، ولا تزال تبكى كلما سمعت شيئا من شعره أحرَّ بكاء وأشجاه.

### قيس يعود إلى المدينة

لما عاد قيس إلى قومه بعد ما كان من لقائه للبنى، وتركه لثمن ناقته دون أن يقبضه اشتد به الحنين إليها، وعاوده المرض الذى كان ألم به، وأصبح لا يفيق من غشيانه وحققانه، فكانت فتيات الحى يعدنه ويعذلنه. فيقول:

إذا أمرتني العاذلاتُ بهجرها      أبتُ كِبِدٌ عما يَقلُنَّ صديقُ  
وكيف أطيع العاذلاتِ وذكُرها      يؤرّقنى والعاذلاتُ هجوعُ

ولما طالت علته قال له أبوه: إني لأعلم أن شفائك في القرب من لبني فارحل إلى المدينة، فرحل إليها، وكان يعرف فيها جارية من الموالى تزوجت بسيد من سادة قريش، وكانت من أطرف النساء وأكرمهن، وكانت تسمى بركة، فأتى دار الضيافة التي لزوجها، فوثب غلمانها إلى رحل قيس ليحطوه، فقال: لا تفعلوا فليست نازلاً إلا أن ألقى السيدة بركة، فإني قصدتها في حاجة، فإن وجدت لها عندها موضعاً نزلت وإلا رحلت، فأخبروها، فخرجت إليه ورحبت به وقالت: حاجتك مقضيه كائنة ما كانت، فانزل، فنزل ودنا منها فقال: أنا قيس بن ذريح، قالت: حياك الله، إن ذكرك لجديد عندنا في كل وقت، اذكر حاجتك، قال: حاجتي أن أرى لبني نظرة واحدة، قالت: ذلك لك عليّ. فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره وزارت لبني مرارا وتلطفت لها بالهدايا، ثم قالت لزوجها: أخبرني عنك هل أنت خير من زوجي؟ فقال: لا، قالت فلبني خير مني؟ قال: لا، قالت: فما بالي أزورها ولا تزورني، قال: ذلك إليها، فسألته الزيارة وأعلمتها أن قيساً في ضيافتها وأن كل مناه أن يراها نظرة واحدة، فأسرعت إلى ذلك وأتتها. فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعلته فيخبرها، ويسألها فتحبره ثم قالت له: أنشدني ما قلت في علتك الأخيرة، فأنشدها قوله:

|                                  |                                    |
|----------------------------------|------------------------------------|
| أعالجُ من نفسي بقايا حُشاشةٍ     | على رَمَقٍ والعائدات تعودُ         |
| فإن ذُكرتُ لبني هَشَشْتُ لذكراها | كما هَشَّ لِلتُّدِي الدُّرور وليدُ |
| أجيبُ بلُبْنِي من دعائي تجلُّداً | وبى زَفْرَاتٍ تنجَلِي وتعود        |
| تُعِيدُ إلى روحي الحياة وإنني    | بنفسي لو عاينتني لأجود             |
| ألا ليت أياماً مضين تعود         | فإن عُذْنَ يوماً إنني لسعيدُ       |
| كأنِّي من لبْنِي سليمٌ مُسهَّدُ  | يَظَلُّ على أيدي الرجال يَمِيدُ    |

فلا اليأس يُسليني ولا القربُ نافعِي  
 ولبني مَنوعٌ ما تكاد تجسود  
 رمثني لُبَيْتِي في الفؤادِ بسهمها  
 وسهمُ لبيني للفؤادِ صَيُود  
 سلا كُلُّ ذِي شَجْوٍ علمتُ مكانه  
 وقلبي للبنى ما حَييتُ ودود  
 وقائلةٍ قد مات أو هو ميثُ  
 وللنفسِ مني أن تفيضَ رصيْدُ

وعاتبته على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إلى من تزوجها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته. ولم يزل يومه معها يحدثها، ويشكو إليها أعفُ شكوى وأكرم حديث حتى أمسى. فانصرفت ووعده الرجوع إليه من غد فلم ترجع. وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا. فكتب الأبيات التالية في رقعة، وأرسل بها إليها:

بنفسي من قلبي له الدهرُ ذاكرُ  
 ومن هو عني مُعرضُ القلبِ صابرُ  
 ومن حُبِّه يزداد عندِي جدَّةُ  
 وحبي لديه مُخلِّقُ العهدِ دائرُ

وبلغ أهل زوجته الثانية خبره وإمامه لبني، فكاتبوه في ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قل لأخيها: ماغررت من نفسي، ولقد أعلمته أني مشغول عن كل أحد، وقد جعلت أمر أخته إليه، فليمض فيه من حكمه ما يرى. فتكرّم الفتى عن أن يفرق بينهما، ولم تلبث أن ماتت.

### لبني تعود إلى قيس

اجتمع الحسين بن علي بن أبي طالب وأخوه الحسن وابن أبي عتيق وجماعة من قريش وتواعدوا على يوم يذهبون فيه إلى زوج لبني، لعله يردها على قيس. فلما رأهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره، فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا في حاجة، فقال هي مقضية كائنة ما كانت من ملك أو مال أو أهل. فقالوا: تهب لنا زوجتك لبني وتطلقها. قال: فإني أشهدكم أنها طالق ثلاثا،

فعوضوه منها مالا كثيرا. ثم سأل القوم أباهما فردها على قيس. وما زالت عنده حتى ماتت، وتبعها يوم موتها يندبها ويكيها ويقول:

ماتت لبيني فموتها موتي      هل تنفعن حسرتي على القوت  
وسوف أبكي بكاءً مكتئبٍ      قضى حياةً وجداً على نيت

ثم أكبَّ على القبر يبكي حتى أغمى عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلاً لا يفريق ولا يجيب مكلما ثلاثة أيام حتى مات، فدفن بجوارها.





## عُرْوَةُ بِنِ حِزَامٍ وَعَفْرَاءُ

### بدء الحب

كان عروة بن حزام من بنى عذرة، مات أبوه وعمره أربع سنوات، فكفله عمه عقال بن مهاصر، فنشأ في حجره مع ابنته عفراء يلعبان ويكونان معا، حتى ألف كل منهما صاحبه إلغا شديدا، وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفه لابنته: أبشر، فإن عفراء زوجتك إن شاء الله. فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فأتى عمه لها يقال لها هند، وقال لها في بعض ما قال: يا عمه إنى لمكلمك وإنى لمستح منك، ولكنى لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه، فاذهبى إلى عمى عقال واخطبى لى عفراء منه. فذهبت العمه إلى أخيها، فقالت له: يا أخى قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد، فإن الله يأجرك لصلة رحمك بى على ما أسألك، فقال لها: قولى فلن تسألى حاجة إلا وفيتها لك. فقالت: تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما بى عنه مذهب، ولا هو شخص يرغب عنه، ولا بى عنه رغبة، ولكنه ليس بذى مال، وليس هناك وجه للسرعة، فلنترك الأمر حتى يصيب بعض المال.

وكانت أم عفراء سيئة الرأى فى عروة، وكانت تريد لابنتها رجلا موسرا ذا مال، وكان يطمعها فى أمينيتها أن ابنتها على حظ وافر من الحسن والجمال. وبلغ عروة أشده، وعرف أن شابا موسرا من ذوى قرباه يريد أن يخطبها لنفسه، فأتى عمه، وقال له: يا عم قد عرفت حقى وقربابتى وإنى ولدك ورببيت فى

حجرك وقد بلغنى أن شخصا جاءك يخطب عفراء، فإن أسعفته برغبته قتلتنى، فأندسك الله ورحمى وحقى، فرقاً له. وقال له: يا بنى أنت معدم وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، إلا أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال فأسع في الأرض واسترزق الله تعالى، لعنك تصيب ما تحقق به أمنيته. فجاء إلى أمها وتلطف لها فأبت أن تجيبه إلا بما تريده من المهر الغالى على أن يسوق إليها هي شطرا كبيرا منه، فوعدها ذلك، وانصرف.

### السفر إلى إيران

عرف عروة أنه لا تنفعه قرابة عند عمه وزوجته، وأنه لا سبيل له إلى عفراء إلا أن يحصل على مال وفير، ففكر في قصد ابن عم له ثرى كان مقيما في بلدة السرى بإيران، وعرض فكرته على عمه عقال وزوجته، فوافقاه على عزيمته، ووعدها ألا يزوجا عفراء غيره حتى يعود. وفى ليلة رحيله صار إلى ابنة عمه: فجلس عندها ومعها فتيات من الحسى، وظلوا يتحدثون، حتى جاء الصباح، فودعها وودع صواحبها، وودع الحى جميعه.

وكان له رفيقان يألفهما، فصحباه فى رحلته الطويلة، وشد كل منهم على راحلته، وكان فى طول سفره ساهيا يكلمانه، فلا يفهم، حتى يرد عليه القول مرارا، إذ كان فكره دائما فى عفراء، وكان كثيرا ما ينشد:

تحملتُ من عفراء ما ليس لى بهِ      ولا للجبال الراسيات يداينِ  
فيا رب أنت المستعانُ على الذى      تحملت من عفراء منذ زمانِ  
كأن قِطاةً علقتُ بجناحها      على كبدى من شدة الخفقانِ

وكانا يعزبانه ويقولان له إن أمنيته منها ستتحقق، فلا يكف عن ذكرها وترداد اسمها، وما أصابه من حبها، وبراه من عشقها، ويقول:

متى تكشفنا عنى القميص تبينا  
 إذا تريا لهما قليلاً وأعظما  
 بلىين وقلباً دائماً الخفقان  
 وقد تركتني ما أعيى لمحدث  
 حديثاً وإن ناجيته ونجاني  
 وعيناي من جدى بها عرقان  
 على كبدى من حب عفراء قرحة

وما زال فى هيامه وذكره لصاحبه حتى قدم على ابن عمه ، فلقبه وعرفه  
 حاله وما قدم له ، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى  
 أهله وقومه .

### نقض العهد

تصادف أن رجلاً من أهل الشام من بنى أمية نزل فى حى عفراء فنحرو  
 بعيراً للناس ووهب وأطعم ، وكان ظاهر الثراء ، وبينما هو فى بعض مجالسه ،  
 إذ رأى عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميتها تحمل إناء سمن وعليها إزار  
 حرير أخضر ، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة ، فسأل عنها ، فعرف  
 أنها ابنة عقال ، فخطبها منه ، فاعتذر إليه ، وقال : لقد سبقك إليها ابن أخ لى  
 يعدلها عندى ، وما لغيره إليها سبيل ، فقال له : إنى أرغبك فى المهر ، فقال  
 عقال : لا حاجة لى بذلك . فعدل الأموى إلى أمها فوجد عندها قبولا ، ناله  
 وبذله وكرمه . فوعده أن تكون من نصيبه ، وجاءت إلى زوجها فتلطفت له ،  
 ثم قالت فى أثناء حديثها معه : أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه ،  
 وقد جاءها الغنى والثراء يطرقان عليها بابها ، والله ما ندرى أعروة حى أم  
 ميت ، وهل ينقلب إلينا بمال أو لا ، فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً  
 ورزقاً سنياً . ولم تزل به حتى قال لها : إن عاد الأموى لى خاطباً أجيته ،  
 فوجهت إلى الرجل من ساعتها أن عُد إلى عقال خاطباً . فلما كان من غد نحر  
 (ذبح) عدة من الإبل وأطعم الناس وفرق عليهم الأموال ، وكان قد دعا الحى

جميعه وفيهم عقال، فلما أكلوا أعاد القول في الخطبة، فأجابه عقال وساق الرجل مهرا كبيرا قرّت له عين الأم، أما عفراء فكانت تنشد:

يا عُزْرُو إن الحَيَّ قد نَقَّضُوا عَهْدَ الإلهِ وحاولوا العُدْرَا

ولما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام في بني عذرة ثلاثة أيام. ثم ارتحل إلى الشام مع صاحبه.

### عودة عروة

فكر عقال كيف يلقي عروة، وهداه تفكيره إلى أن يحتال عليه، فعمد إلى قبر عتيق. فجدده وسواه، وسأل الحَيَّ كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام. فنعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه وهو يئن ويتفجع، وكان يأتي دارها فيلصق صدره بها، وينتحب أحرّ انتحاب، فعذله بعض الناس وقالوا له إنك تشرف على التلف، فأنشد:

بَيّ اليأسُ والداءُ الهيامُ سُقَيْتَهُ فإياك عنى لا يكن بك ما بيا

ورقت لحاله بعض فتيات الحَيِّ، فأخبرنه بحقيقة ما كان من عمه وأنه غدر بوعده ولم يوف بعنده، ولما صح عنده ما أنبأته به الفتيات أنشأ يقول:

|                                  |                          |
|----------------------------------|--------------------------|
| فيا عمّ يا ذا العدر لا زلت مبتلى | حليفا لهمّ لازم وهوان    |
| عدرت وكان العدر منك سجية         | فألزمت قلبي دائم الخفقان |
| وأورثتني غمًا وكربا وحسرة        | وأورثت عيني دائم الهملان |
| فلا زلت ذا شوقٍ إلى من هويته     | وقلبك مقسوما بكل مكان    |

### إلى عفراء بالشام

ولم يلبث عروة أن عزم على الرحلة إلى الشام، لعله يرى عفراء ويشفي غليله بنظرة منها، فركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة واتجه إلى الشام

فقدّمها، وسأل عن الرجل فأخبره الناس به ودلّوه عليه، فقصده، فأكرمه دون أن يعرفه وأحسن ضيافته، ومكث عنده أياماً حتى أنس به. ثم عزم على أن يكشف عن نفسه لصاحبه. فقال لجارية لها كانت تقدم إليه اللبن حين يصبح: هل لك في يد تولينيها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك. فقالت: سوءة لك، أما تستحي من هذا القول؟! فأمسك عنها، ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هي والله بنت عمي وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس، فاطرحي هذا الخاتم في قدحها، فإن أنكرت عليك، قولي لها: اصطبغ ضيف عندنا قبلك، ولعله سقط منه. ففرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم في القدح. فعرفته، فشيعت، ثم قالت لجاريتهما: اصدقيني عن الخبر فصدقتهما. فلما جاء زوجها قالت له: أتدرى من ضيفك هذا؟ فقال: إنني لا أعرفه، فقالت: إنه عروة بن حزام ابن عمي وقد كتمك نفسه حياءً منه. فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمان نفسه إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله لا تترك هذا المكان أبداً. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان. فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء. ثم تاب إلى رشده، فقال لها: هذا آخر لقائنا، فقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن إلى وأنا خجلان منه. ووالله لا أقيم بعد علمه مكاني، وإنني عالم أني راحل إلى منيتي، فبكت وبكى وانصرف.

فلما جاء زوجها وعرف أن عروة راحل قال لها: يا عفراء امنعي ابن عمك من الرحيل، فقالت: هو والله لا يمتنع، إنه أكرم وأشد حياءً من أن يقيم بعد ما جرى بينكما. فدعاه وقال له: يا أخي اتق الله في نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً، ولئن شئت لأفارقنها من أجلك، فجزاه خيراً وأثنى عليه وقال: إنما أن الطمع فيها

أفتى. والآن قد يئست وحملت نفسى على الصبر فإن اليأس يسلى، ولى أمور ولا بد من رجوعى إليها، فإن وجدت بى قوة عدت إليكم وزرتكم، حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء، فزودوه وأكروده وشيعوه، وبضى راجعا إلى قومه.

### يأس وخبل

وكان عرووة يتحاسك فى أول طريقه إلى قومه، ثم لم يلبث أن أصابه خفقان وغشيان، فكان يلتقى على وجهه خمارا لعفراء زودته به، فيفتق، وينشد:

بِنَا مِنْ جَوَى الْأَحْزَانِ وَالْبَعْدِ لَوْعَةً تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَدُوبُ  
وَمَا عَجِبِي مَوْتَ الْمُحِبِّينَ فِي النَّوَى وَلَكِنْ بِقِسَاءِ الْعَاشِقِينَ عَجِيبُ

وانتهى إلى أهله: وقد سلب عقله ومسه الخبل، ولم يعد يعى شيئا مما حوله، وأقام أياما لا يتناول طعاما. فخرجوا به ليلة إلى فضاء ليتنزّه، فسمع رجلا يقول لابنه: على أى ناقة حملت قِرب الماء؟ فقال على العفراء (ناقة) ولم يكد عرووة يسمع ذلك حتى أغمى عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذَكَرِكِ رِعْدَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامُ دَبِيبُ  
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا أَعْقَبَتْهَا فِي الرِّيَاحِ جَنُوبُ

### التداوى من الحب

واشتد الخبل والهذيان بعرووة كما اشتد به الضنا والنحول حتى لم يكد يبقى منه شىء فقال قوم: إنه مسحور وقال قوم: بل به جنّة وقال آخرون: بل هو موسوس، ثم قالوا لأهله: إن فى اليمامة (بالجنوب الشرقى من بلاد العرب) عرّافا طبيبا حاذقا يداوى من الجن، وهو أطبّ الناس، فلو أتيتموه، ففعل الله يشفيه، فساروا إليه من أرض بنى عذرة (فى شمالى الحجاز) فجعل

يسقيه السلوان وهو لا يزداد إلا سقما، فقال له عروة: هل عندك ثلحب دواء أوقية، فقال: لا والله. فانصرف عنه مع أهله، وهو يقول:

أقول لعرف اليمامة داوني      فإنك إن داويتني لطبيب  
وما بي من خيل ولا مس جنة      ولكن عسى يا أخى كذوب  
فواكبدا أمست رفاتاً كأنما      يلذعها بالوقدات طبيب  
عشية لا عفراء منك بعيدة      فتسلو ولا عفراء منك قريب

وسمع أهله بعرف آخر في الحجر بالقرب من ديارهم، فتصدده به، فعالجه، وصنع به مثل صنيع عرف اليمامة فلم يزد إلا ضنى وسقما. وقال له عروة: والله ما دائي ودوائي إلا شخص مقيم بالشام، فهو دائي وعنده دوائي وهو الذى أمرضني وأضناني، فيئس العراف من شفائه، ومضى به أهله إلى ديارهم يائسين وهو ينشد في الحين بعد الحين:

جعلت لعرف اليمامة حكمه      وعرف حجر إن هما شفياني  
فقالا: نعم، نشفى من الداء كله      وقاما مع العواد يبتدران  
فما تركا من رقية يعلمانها      ولا سلوة إلا وقد سقياني  
وقالا: شفاك الله، والله ما لنا      بما حملت منك الضلوع يدان

### موت العاشقين

وما زال عروة يعاني من حبه، وأهله يعنون به، حتى أصبح خيالا، والناس ينظرون إليه ويتعجبون من أمره، وأموت يروح ويغدو بين عينيه. وظل على ذلك الحال حتى فاضت نفسه، وهو يقول:

من كان من أخواتي باكياً أبداً      فالليوم إنى أرانى مقبوضا

وبرزت أخواته فشققن ثيابهن وضربن خدودهن ، فأبكين كل من حضر ، ومات من يومه . ونا بلغ موته عفراء قالت لزوجتها : قد كان من أمر عروة ما بلغك ووالله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل وقد مات بسببي ولا بد لي أن أقيم مأتما عليه وأندبه ، فأذن لها في ذلك . فشدت الرحال إلى قبره وظلت تندبه ثلاثة أيام وهي تنشد :

فلا لقي الفتيانُ بعدك راحةً      ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامٍ  
ولا وضعتُ أنثى تماماً بمثله      ولا فرحتُ من بعدهِ بسلامٍ

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت ، فدفنت إلى جانبه ، فنبتت من القبرين شجرتان ، حتى إذا طالتا التفتتا ، فكان الناس يعجبون من ذلك .



## كثيرة وعزة

### ابتداء الحب

كان كثير من قبيلة خزاعة، وكان شاعرا مبدعا، وكانت عزة من قبيلة ضمرة. وتعلق بها وأكثر فيها من الغزل حتى عرف بها، فسمى كثير عزة، وكانت أول علاقة له بها أنه خرج خلف غنم يسوقها إلى موضع بالقرب من المدينة فلما كان بمنازل بنى ضمرة مر بنسوة فسألهن عن الماء، فقلن لعزة، وهى جارية قد كعب ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدته وأعجبتة، وغابت قليلا، ورجعت إليه وهو يسقى غنمه، فقدمت له طائفة من الدراهم، وقالت: يقطن لك النسوة: بعنا بوزة الدراهم كبشا من غنمك، فأمر غلاما معه أن يدفع إليها كبشا، وقال لها: رُدِّي الدراهم وقسولي لهن: إذا غدوت عليكن اقتضيت حقي.

فلما غدا عليهن فى اليوم الثانى جاءته امرأة منبن بدراهمه. فقال: أين الصبية التى أخذت منى الكبش، قالت: وما تصنع بيا؟ إنها عزة وما شأنك؟ فقال: عزة غريمى، ولست آخذ حقى إلا منها، فمزحت معه وقالت: عزة جارية صغيرة، وليس فيها وفاء لحتك، فأحله على أو على إحدى النسوة اللاتى رأيتين فإننا أملا به منها وأسرع له أداء، فقال: ما أنا بمحيل حتى عنها وأنشد:

قضى كل ذى دينٍ فوفى غريمه وعزة ممطولٌ مُعنى غريمها

ومضى لوجهه، ثم رجع بعد أن فرغ من بيع غنمه، يسأل عن عزة وينشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهى شاخص على حين أن شبتُ وبان نهودها  
من الخفِرات البيض ودَّ جليسُها إذا ما انقضتْ أحداثُها لو تُعيدها  
نظرتُ إليها نظرة ما يسرُنِي بها حُمُرُ أنعامِ البلادِ وسودُها

ونا أبى أن يأخذ الدراهم إلا أن يراها أبرزتها له المرأة وهى كارهة لذلك.  
وأحبته عزة بعد ذلك أشد من محبته لها.

### غلام لكثير مع عزة

وكان لكثير غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعه وباطلته مدة وهو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاي كثير:

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوقى غريمه وعزة ممطولٌ مُعنى غريمُها

فانصرفت عنه خجلة. فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا والله، قالت: فهذه عزة. قال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا. ورجع إلى مولاه فأخبره بذلك. فأعتقه ووهب له المال الذى كان فى يده.

### لقاء

سار كثيرٌ إلى صديق من حى عزة فنزل عنده، وتوسل إليه أن يجمعه بعزة، فصار به إلى منزله، حتى كان العشاء، فأخذ خاتمه، وجاء بيتها، فسلم، فخرجت إليه فأعطاهما الخاتم، فقالت: أين الموعود؟ فقال: شجرات أبى عبيد الليلة، ورجع إليه، فأعلمه. فلما جن الليل قال له كثير: انبض بنا ونهض معه فجلسا هناك يتحدثان حتى أقبلت، فجلست. وتحدث كثير وعزة فأطلا، وأراد الرجل أن يدعها وشأنهما، فذهب يقوم، فقال له كثير

إلى أين تذهب، فقال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان. فقال له كثير: اجلس فوالله ما كان بيننا شيء قط. فجلس الرجل وهما يتحدثان وبينهما شجرة عظيمة وهي من ورائها جالسة، وما زال كذلك حتى برق الصبح، فقامت وودعت وانصرفت.

## امتحان

أرادت عزة أن تمتحن كثيرا وترى ما لها عنده، فانتقبت يوما ومرت به، فرآها وهي تتبختر في مشيتها، فلم يعرفها، فاتبعها وقال: يا سيدتى قفى حتى أكلمك فأنى لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد؟ وإنما لك فى صدق المودة ومحض المحبة والهوى على حسب الذى كنت تبدى لها من ذلك وأكثر، وأين قولك:

إذا وصلتنا خلةً كى نُزِيلها أبتينا وقلنا الحاجبية أولُ

فقال كثير: بأبى أنت وأمى أقصرى وكفى عن ذكرها، واسمعى ما أقول، ثم أنشدها قوله، وقد صنعه توا:

ما وصل عزة إلا وصل غانيةٍ فى وصل غانيةٍ من وصلها خلفُ

ثم قال لها: هل لك فى المصادقة والمخاللة؟ فقالت: كيف بعد الذى قلته فى عزة وسار فى الناس من غزلك وشعرك، ثم سفرت عن وجهها وقالت: أغدرا وانتكاثا يا فاسق؟! فبهت ولم ينطق بكلمة وتحير وحجل، ثم إنها أخذت فى بيان غدره ونكته وقله وحفاظه ونقضه للعهد والنيثاق، ثم قالت: لله جميل حيث يقول:

لحى الله من لا ينفع الودُّ عنده ومن حبله إن مُدَّ غير متين  
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلافٌ بكل يمين

فأنشأ كثير يعتذر إليها ويتنصل بانخزال وانكسار، وأخذ يحتال في دفع زلته، وهي تزئبه أعنف تأنيب، وهو يقول لها: ألم تسمعي قولي:

يزهّدني في حب عزة معشرٌ      قلوبهمُ فينا مخالفةٌ قلبي  
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى      فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب  
وما تبصر العينان في موضع الهوى      ولا تسمع الآذانُ إلا من القلب  
ولم تأبه له، وانصرفت عنه غاضبة.

### امتحان ثان

وأرادت عزة امتحان كثير مرة ثانية، فقالت لبثينة صاحبة جميل: تصدّي لكثير وأطعميه في نفسك حتى أسمع ما يجيبك به، فأقبلت إليه وعزة تمشى وراءها من بعيد متخفية. وعرضت لبثينة على كثير الوصل، فقاربها وهو ينشد:

رمتني على عميدٍ بئينة بعدما      تولى شبابي وأقبلنُ شبابها  
بعينين نجلاوين لو رقرقتما      لنجم الثريا لاستهلّ سحابها

فكشفت عزة وجهها، فبادرها الكلام، وأتم شعره قائلاً:

ولكنما ترمين نفساً مريضةً      لعزة منها صفوها ولبابها

فضحكت، ثم قالت لبثينة: أولى لك مني! نجوت. ومرتا تتضحكان.

### عزة تتزوج

تدافعت الريب والشكوك على عزة. وظنت أن كثيرا غير صادق في هواها، فاحتجبت عنه، وتقدم لها فتى من عشيرتها يطلب الزواج بها فتزوجته. وكان كثير قد غاب عنها في مديح بعض الرؤساء والحكام، لعله

يصيب من المال ما يمكنه من زواجها، فأصاب خيراً. ثم قدم فوجدها قد تزوجت، فجزع وبكى أشد بكاء، وكان مما أنشد:

خَلِيلِيْ هَذَا رَيْعُ عَزْرَةٍ فَاعْقِلَا      بعيريكما ثم ابْكِيَا حيث خَلَّتِ  
وما كنتُ أدري قبل عَزْرَةٍ ما البكا      ولا موجعاتِ القلبِ حتى تَوَلَّتِ  
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتُ      من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلَّتِ  
صَفُوحاً فما تلقاكِ إلا بخيلةً      فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الوصلَ مَلَّتِ  
أصاب الرُّدَى مَنْ كان يهوى لكِ الرُّدَى      وَجُنَّ اللواتي قلن عَزْرَةٌ جُنَّتِ  
وما أنصفتِ أما النساءِ فَبِعَضَّتِ      إِلَيَّ وأما بالنسوالِ فَضَنَّتِ

وأصبح لا يهناً له طعام ولا شراب، حتى أخذه الضنا والسقام، فكان يرحل في الصحراء رحلات بعيدة يطلب السلو والنسيان.

### كثير ومجنون ليلي

وخرج كثير مرة يسير في الفيافي، فإذا رجل معه ظبي، فسلم عليه فرد السلام، فقال له: أتطعمني من هذه الظبية التي معك؟ فقال إي والله. فنزل، فعقل ناقته وجلس يحدثه، وإذا هو أحسن خلق الله حديثاً وأرقه وأغزله، وأقبل على الظبية يقول:

أيا شبه ليلي لن تراعى فإننى      لك اليوم من بين الوحوش صديقُ  
ويا شبه ليلي لن تزالى بروضةٍ      عليك سحابٌ دائمٌ وبروقُ  
فديتك من أخذٍ دهاك لحبِّها      فأنتِ ليلي ما حييتِ طليقُ

ثم أطلقها، فمرت تجرى. فعجب كثير من شأنه، وقال لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فلما أمسى قام إلى غار قريب من الموضع وقام معه كثير، فباتا في الغار. فلما أسفر الصباح قام وإذا ظبية تعدو فعدا خلفها حتى أمسك بها ونظر في وجهها ملياً، ثم أطلقها فمرت وأنشأ يقول:

أذهبى فى كلاءة الرحمن أنت منى فى ذمة وأمان  
ترهيبنى والجيد منك كليلى والحشا والنحول والعينان  
لا تخافى فلن تفاجى بسوء ما تغنى الحمام فى الأغصان

وظل كثير معه يومه ، ولما أمسيا صارا إلى الغار فباتا فيه . ووقعت لهما فى الصباح ظبية فوثب المجنون خلفها ، حتى أمسكها ، وأراد أن يطلقها ، فقبض كثير على يده ، وقال له : لقد متنا من الجوع وكلما أمسكت بظبية أطلقتها ، فنظر فى وجهه وعيناه تذرطان وبكى كثير ليكائه ، وسأله نسبه ، فعرف أنه مجنون ليلى . فودعه ، ومضى لوجهه .

### عتاب

ومر كثير فى بعض غدواته وروحاته على حى عزة وهو راكب بعيره . فقرأها فى نسوة فأقبل عليها وقال : السلام عليك يا عزة . فقالت : عليك السلام يا جمل ، فنزل عن الجمل وأطلقه وأنشد :

حَيْثُكَ عَزَّةٌ بَعْدَ الْهَجْرِ وَانصرفتُ فَحَيَّ وَيَحْكُ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَمْلُ  
لَوْ كُنْتَ حَيَّيْتَهَا مَا زَلْتَ ذَا مَقَّةَ عِنْدِي وَمَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ وَالْعَمَلُ  
لَيْتَ التَّحِيَّةَ كَانَتْ لِي فَأَشْكُرُهَا مَكَانَ يَا جَمْلُ حَيَّيْتَ يَا رَجُلُ

فالتفتت إليه معاتبه ، وقالت : ويحك ألا تتقى الله ، أرايت قولك الذى أشهرتنى به :

بأية ما أتيتك أم عمرو فقمتم لحاجتى والبيت خالى

أخلوت معك فى بيت قط ، فقال : لم أقل ذلك أبدا ، ولكننى قلت :

وأقسم لو أتيت البحر يوماً لأشرب ما سقنتنى من بلال

فقالت: أما هذا فنعم، ثم قامت، فمرت إلى خباتها، وهو يتبعها بعينه ويبكي وينشد:

اللّٰه يعلم لو أردتُ زيادةً      في حبِّ عَزَّةٍ ما وجدتُ مزيداً  
 رهبانَ مَدِينِ والَّذينَ عهَدْتُمُ      يبكونَ من حذرِ العذابِ قعوداً  
 لو يسمعونَ كما سمعتُ حديثها      حَرُّوا لعزَّةِ خاشعينَ سجوداً  
 والمَيْتُ يُنْشَرُ إنْ تمسَّ عظامه      مَسًّا ويخلدُ إنْ يراكِ خلوداً

### في الطريق إلى الحج

حج كثير في سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحد منهما بصاحبه، فلما كانوا في بعض الطريق أمرها زوجها أن تبتاع سمنا من بعض من في القافلة تصلح به طعاما لأهل رفقته، فجعلت تسأل في القافلة، حتى لقيت كثيرا وكان يبرى أسهما له، فلما رآها جعل ينظر إليها وهو مستمر في بربه للسهام، فبرى ساعده وهو لا يشعر فجرى الدم منه، فلما تبينت ذلك أسكت يده وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وقال لها: عم تبحثين، فعرفته بغيتها، وكان عنده قدح سمن فحلف لتأخذنه فأخذته وجاءت به إلى زوجها. فلما رأى الدم سألها عن خبره فكاتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فحلف لترجعن وتشتمن كثيرا في وجهه، وجاء بها إليه، فوقفن عليه وهو معها، فسبته وهي تبكي، وعرف كثير سبب بكائها فقال:

يكلّفها الخنزير شتمى وما بها      هوانى ولكن للمليك استذلّت  
 هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ      لعزّةٍ من أعراضنا ما استحلّت  
 وقلت لها يا عَزُّ كل مصيبةٍ      إذا وُطئتُ يوماً لها النفسُ ذلّت

## مرض عزة وموت كثير

ومرضت عزة مرضاً شديداً، وسمع بذلك كثير، فجزع عليها جزعاً ممضاً،  
وألماً بدارها يسأل عنها وينشد هذه الأبيات:

|                                 |                               |
|---------------------------------|-------------------------------|
| يقولون سوداءُ العيون مريضة      | فأقبلتُ من أهلى إليها أعودُها |
| فوالله ما أدرى إذا أنا جنتها    | أبرئها من دائها أم أزيدها     |
| إذا جنتها وَسَطَ النساءِ منحتها | صدودا كأن النفس ليس تريدها    |
| ولى نظرة بعد الصدود من الجوى    | كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها     |

وعوفيت ليلى، ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى مات كثير، فخرجت عزة  
إلى جنازته ومعها كثير من النساء يبكينه ويندبنه ندباً حاراً.



## توبة وليلى الأخيلىة

### نشأة الهوى

كان توبة شابا شجاعا ببرزوا فى قومه آل خفاجة سخيا فصيحا مشهورا بكارم الأخلاق ومحاسنها، وكان قومه ينزلون فى بادية الحجاز مجاورين لبني الأخيل العامريين. ويذهبون معهم فى الحروب والغزوات، وكان شيخ بنى الأخيل حذيفة بن شداد، وكان له ابنة شاع فى العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها، وحدث أن غزا بنو خفاجة وبنو الأخيل يوما. فلما رجعوا من غزوهم حانت من توبة التفاتة. وقد برزت النساء للقاء القادمين من الغزو، فرأى لىلى. فافتتن بها، فجعل يعاودها. فيتحدث معها، إلى أن أخذت قلبه وأطارت لبه، فشكا لها يوما ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك فأقاما على التزاور وشكاية الهوى.

### زواج لىلى

كان توبة يقول الشعر فى لىلى. فخطبها إلى أبيها، فأبأها عليه لعادة العرب ألا يزوجوا بناتهم من يتغزل بها ويشهر فى الناس اسمها، وتقدم إليها شاب من عشيرة بنى الأدلع فزوجها أبوها له، فقلق توبة. وكان يترقب غفلات الحى فى الليل فيزورها.

فلما كثر منه ذلك خرج أبوها وزوجها ومعهما نفر من قومهما إلى السلطان، فشكوا إليه ما نالهم من توبة وما شهرهم به، وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم

بمنعه من الإنام ليللى والكلام إليها أو الحديث معها ، فكتب لهم كتابا إلى عامله يأمره فيه أن يحضر توبة ويتقدم إليه فى ترك زيارة ليللى ، فإن أصابه أهلها عندها فقد أهدر دمه . فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى توبة وأهله فجمعهم وقرأ عليهم كتاب الخليفة ، وقال لتوبة : اتق الله فى دمك لا يذهب هدرا . وخرج مع قومه فأخذوا يلومونه وينهونه عن الاقتراب من ليللى ودارها ، فبكى . وسمع حمامة تترنم ، فقال :

|  |                                |
|--|--------------------------------|
| سَقَاكَ مِنَ الْعُرِّ الْعَوَادَى مَطِيرُهَا | حمامةً بطنِ الواديين ترنمى     |
| ولا زلت فى خضراء غصن نصيرها                  | أبىنى لنا لا زان ريشك ناعما    |
| بلى كل ما شق النفوس يضيرها                   | يقول رجال لا يضرُك نأيتها      |
| على الشرف النائي المخوف أزورها               | وانى ليشفينى من الشوق أن أرى   |
| أنت ججج من دونها وشهورها                     | أرى اليوم يأتى دون ليللى كأنما |

### علامة بين العاشقين

ظل توبة يزور ليللى خفية ، فطلبه قوما ، ولما خافت عليه منهم جعلت بينه وبينها أمارة ، فقالت له : إذا مررت فوجدتنى مبرقة فاجلس إلى مطمئنا فلا حرج حينئذ ، فإذا رأيتنى سافرة فلا تقرب منى واحتط لنفسك وخذ الحذر .

ودخل على ليللى زوجها ، وكان غيورا . فحلف إن جاءها توبة ولم تعلمه بمجيئه ليقتلنها ، وكانت تعرف الجهة التى يجيئها منها ، فرصده بموضع . وصدته بآخر . فجاء ، فأسرعت وألقت البرقع عن رأسها . فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رُصد وأنها سمرت لذلك تحذره . فركض فرسه وتولى آسفا وهو ينشد :

وكنت إذا ما زرت ليلي تبرقعتُ      فقد رابنى منها الغداة سفورها  
وقد رابنى منها صدودُ رأيتَه      وإعراضها عن حاجتى وقصورها

## زيارة

ولما اشتد زوج ليلي وأهلها عليها فى مراقبتها ظلت لا تمكنه من زيارتها  
ولقائها إشفاقا عليه وخوفا على نفسها، وخرجوا فى نجعة، فأرسلت إليه  
من يخبره. فذهب إليها وتحادثا وتشاكيا ما يلقيان من الوجد وما زال معها  
حتى انكشف النهار، فودعها ومضى وهو يقول:

أليس يضرُ العينَ أن تكثر البكا      ويُمنع منها نومها وسرورها  
لكلِّ لقاءٍ نلتقيه بشاشةً      وإن كان حولا كل يوم نزورها

## عتاب

بلغ ليلي أن توبة يتحدث فى شعره عن زيارته لها وأنها تلقاه فى  
جباثها، فغضبت غضبا شديدا، وقالت: إنه يقول ما يريبنى وما التقيت  
معه إلا على عفاف. وأمسكت عن لقائه فتوسل إليها بكل وسيلة أن تلقاه.  
فأبت ذلك إباء شديدا، وقالت إنه يريد أن يقضحنى بما لم يحدث. فأرسل  
إليها أنه سيتناول السم أو يلقي بنفسه من رأس جبل، فرقت له، ودعته إلى  
زيارتها بعد أن جمعت ثلاثة من أهلها، بحيث يخفون عليه. فلما جاءها  
قالت له: أى خدر دخلت معى حتى تشيع ما تشيع، فاعتذر إليها وتنصل  
جهده، وقال لها: إن الوشاة الأعداء هم الذين يشيعون ذلك حتى يفرقوا  
بيننا، وأما أنا فقلت:

علَى يمينِ اللّهِ إن كان بَعْلها      يرى لى ذنبا غير أنى أزورها  
وانى إذا ما زرتها قلت يا اسلمى      وما كان فى قولى اسلمى ما يضرها

فشرت لقوله، ولسماع أهلها ما يببرئ ساحتها.

## رقابة الزوج

وكان زوج ليلى لا يزال يراقبها ويرتاب فى أمرها، وكلما رأى حول بيته شبحا ظنه توبة وأنها على موعد معه. فمن ذلك أن رجلا من عشيرة أخرى غير عشيرتها ابتغى إبلا له ضلت منه، وما زال يبحث عنها، حتى دخل عليه الليل بالقرب من خباء ليلى. فنزل حيث ينزل الضيف، وأبصرته ليلى ولم تكلمه لأن زوجها كان غائبا. فلما كان بعد هدأة من الليل، وتراءى شبح الرجل من بعيد، فخاله زوجها توبة. فدخل عليها يناجيها ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا توبة أو بعض أصدقائك. ونهض يضربها وهي تناشده. فقال لها: والله لا أترك ضربك حتى يأتى ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير، يا رجل. وأقبل الرجل يسرع حتى أتاها وزوجها يضربها، فأخذ بخناقها. فعرضت ليلى للرجل وقالت له: يا عبد الله: مالك ولنا؟ نَحْ عنا نفسك.

وانصرف الرجل، حتى إذا كان الغد ألم بالحى، ورأى غنما فيها راعية، فسألها عن أشياء، حتى بلغ به الذكر، فقال لها أخبريتى عن أصحاب الخباء الفلانى وعين لها الخباء الذى سأل فيه حادث الأيمن. فضحكت وقالت له: إنك تسألنى عن شىء أنت به عالم. فقال: وما ذلك؟ لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم، قالت: ذاك خباء ليلى الإخيلية وهى أحسن الناس وجهها، وزوجها رجل غيور، فهو يعزب بها عن الناس فلا يقيم بها معهم، وما يقربها أحد ولا يضيفها، فكيف نزلت أنت بها؟ فقال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه، وكتمت عنها الأمر.

## زواج توبة

لما بالغ زوج ليلى فى مراقبتها هجرت توبة ، فأضناه الشوق حتى أسقمه ، فلامه رفقاًؤه، وقالوا له إنك تضيع عمرك وراء ذات بعل ، وأولى لك أن تطلب غيرها ، وفى العرب جميلات كثيرات ، فافرق بنفسك وتزوج من امرأة لعلها تنسيك صبايتك بليلى ، واحذر لقاءها ، فإن زوجها بالمرصاد وقد أهدر السلطان دمك ، فلا تغرر بنفسك .

ونزل توبة فى بعض نجعات قومه برجل أكرمه ، وكان له ثلاث بنات ، وأعجب به فعرض عليه إحداهن ليكون بعلا لها ، فاختار كبراهن ، ومكث معها عند أبيها مدة ، ولكنها لم تُنسه ليلى ، فقد عاوده الحب وعاودته أسقامه .

## ريبة عارضة

عاد توبة إلى قومه ، وجعل يزداد به الوجد ، وينشد فى ليلى أشعاره ، وهى معرضة عنه ، لما عرفت من زواجه . غير أنه لم يكف عن الإلمام بدارها حتى جانت له يوماً فرصة ، فحَدَّثَهَا وَحَدَّثَتْهُ ، وكان أول ما قالت له : إنك قد عاقت بأخزى فما لك لا تكف عينا ، فحلف لها أنه لم يقربها وأنه لا يزال يحفظ ودها وعهدا ، ثم بدرت منه كلمة ظنت أنه خضع فيها لبعض الأمير ، فقالت له :

هـ سَأَلْتُ وَالْمَرْءَ إِذَا سَأَلَ رَيْبَةَ مَا تَعْبَهُ

وَذَى حَاجَةٍ قَلْنَا لَهُ : لَا تَبُحْ بِهَا فُلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيِيَّتْ سَبِيلُ

لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لِأَخْرَى قَارِعٌ وَحَلِيلُ

فقطن أنها استرايت منه ، فحلف أنه لم يرد بسوءاً ، فاستشاطت غضباً وودعها على استحياء ومضى .

## الرحيل إلى الشام

ولما لج بتوبة الحب نصحه بعض أهله أن يرحل إلى الشام غازيا، لعله ينسى حبه، واستمع إلى نصحهم، فخرج إلى الشام ومر ببني عذرة، فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له جميل: من أنت؟ قال أنا توبة الخفاجسى، فقال له: هل لك فى الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة ثوبا مصبوغا، فلبسه، ثم صارع توبة فصرعه. ثم قال له: هل لك فى النضال ورمى السهام؟ قال: نعم فناضله، فنضله. ثم قال له: هل لك فى السباق؟ فقال نعم، فسابقه، فسبقه. فقال له توبة: يا هذا إنما غلبتني بما شدت من عزيمتك هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

## العودة سريعا

لما دخل توبة الشام أقام بها يسيرا، ولم يستقر به المقام، فقد كانت تعاوده ذكرى ليلي الأخيلية، وكان يخرج إلى التلال والروابي، ليعزى نفسه، وجزع جزعا شديدا وأصبح دأبه البكاء، فلم يلد له حال، ولا نعم له بال. فعاد إلى قومه، وحين دخل حى ليلي لقى صغيرا يلعب، فقال له: هل أنت عارف بليلى؟ قال: نعم، قال: امض وأنشد:

وكننت إذا ما زرت ليلي تبرعتُ      فقد رابنى منها الغداةَ سفورها

وعد إلى وقل لى ما تجيبك به. فمضى الغلام، فأنشد ليلي البيت، فعلمت أن توبة قد ورد الحى، فقالت للغلام: قل له إنها الآن مبرقة، فمضى الغلام إليه وأعلمه ذلك، فأقبل إليها فجدد زيارتها على خيفة من زوجها.

## موت توبة

كان بين بنى خفاجة قوم توبة وبعض قبائل العرب حروب وثورات، وكانت المعارك لا تزال ناشبة بينهما، فاشترك توبة يوماً في بعض هذه المعارك، وأبلى بلاء حسناً، ولكن سهما أصابه من بعض الأعداء، فخر مغشياً عليه وحضرته الوفاة، فقال له ابن عم له: هل لك حاجة أبلغها إلى أهلك، فقال: نعم تبلغ ليلى الأخيلية هذه الأبيات:

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت    | على ودونى تُرْبَةٌ وصفائح     |
| لسلّمت تسليم البشاشة أو رقا   | إليها صدّى من جانب القبر صائح |
| ولو أن ليلى فى السماء لأصعدت  | بطرفى إلى ليلى العيون الكواشح |
| أأعبط من ليلى بما لا أناله    | ألا كل ما قرّت به العين صالح  |
| وهل تبيكين ليلى إذا مت قبلها  | وقام على قبرى النساء النوائح  |
| كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها | وجاد لها جارٍ من الدمع سافح   |

فقال: إنى مبلتعا، فقال توبة: وهل لك فى أخرى؟ جزاك الله خيراً قال: ما هى؟ قال: إذا بلغت الحى فاصعد إلى شرف (مكان عال) ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلى من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فأقبل الرجل على ليلى فأبلغها أبيات توبة، فبكت بكاء شديداً. ثم سعد شرفاً، وأنشد البيت، فأجابت ليلى:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

## ليلى تندبه حتى الموت

وأسرعت ليلى فخلعت زينتها، وأقامت على الحزن طوال حياتها من بعد توبة، لا يهنأ لها طعام ولا شراب. وأكثرت من ندبه والنواح عليه من مثل قولها:

لتبك عليه من خفاجة نسوة بدمع كفيض الجدول المتفجر

وقولها:

فلا يبعدنك الله يا توبَ هالكا      أخوا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ  
وآليتُ لا أنفكُ أبكيك ما دعيتُ      على فننٍ ورقاءٍ أو طار طائر

ولها فيه قصائد وأشعار كثيرة، تندبه بها ندبا حارا، وكانت لا تقبل من سفر إلا تمر بقبره وتبكيه بكاء مرا، وأقبلت على القبر يوما ومعها زوجها، وهى فى هودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة. وتركها زوجها فصعدت أكمة عليها القبر، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم التفتت إلى من معها من القوم وقالت: ما باله لا يسلم على، تشير إلى قوله

ولو أن ليلي الأخيلىة سلّمت      على ودونى تُزيّة وصفائحُ  
لسلّمتُ تسلیمَ البشاشة أو زقا      إليها صدّى من جانب القبر صائحُ

وكانت إلى جانب القبر يومة كامنة، فلما رأت اليهودج فزعت وطارت فى وجه الجمل، فنقر، فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنوها بجواره.



# الصِّمَّةُ وَرَبًّا

## تعارف مبكر

كان الصِّمَّةُ الْقُسَيْرِيُّ فتي من فتيان بنى عامر ومن شجعانهم وشعرائهم، وقد تعلق حين شب بابنة عمه ريا وكانت ذات حسن وظرف تعرف أيام العرب وأشعارها، وقد نشأ معا، فكانا يتذاكران الأخبار ومُلح الشعر وما جرى منه على ألسنة العشاق.

وأعجب بها الصِّمَّةُ إعجابا ملك عليه قلبه وذهب بلبه، ولم يكن عندها من الحب مثل ما عنده منه، فلما شكها ما يجد منها إلى بعض رفقاءه نصحوه أن يطلبها من عمه فإنه لن يرده خائبا.

## الصِّمَّةُ يخطب ريا

وذهب الصِّمَّةُ إلى عمه فخطب منه ابنته ريا، فقال له لا أزوجها إلا على مائة من الإبل، فذهب إلى أبيه فأعلمه ذلك وشكا إليه ما يجد بها، فأعطاه تسعة وتسعين بعيرا، وقال له: هي كل ما أملك، ولعل عمك يقبلها. فلما جاء بها عمه عدها، فوجدها تنقص بعيرا، فقال: لا آخذها إلا كاملة. فلما رأى ذلك من فعله أرسلها فعاد كل بعير منها إلى الأفه، وأخذ يبكي نفسه وحظه.

## زواج ريا

وخطب ريا من أبيها أحد فتيان بنى عامر، وكان موسرا، فأوفى له بما أراد من الإبل، وزفها إليه، فوجد بها الصِّمَّةُ وجدا شديدا وأظلمت الدنيا في عينيه، وحاول أن يلم بها أو يلقاها، فصدته عنها فبكى وأنشد:

لعمري إن كنتم على النَّأْيِ وَالقَلْبَى بكم مثل ما بي إنكم لصديق  
إذا زفراث الحبَّ صَعَدنَ فِي الحشا رُيْدنَ ولم تُنْهَجْ لِمَن طريق

### الرحلة إلى الغزو

ولما تنازع الصمة الشوق مرض حتى أضناه السقم، فأخذه أبوه إلى كاهن،  
لعله يشفيه مما به، وكان الكاهن يسمى غاوى بن رشيد، فلما سأله عن  
مرضه، وألح في السؤال، قال:

حننْتُ إلى رَبِّيَا ونفْسك باعدتُ مزارك من ربا وشعبا كما معا  
وما حَسَنُ أن تاتى الأمرَ طائعا وتجزعَ أن داعى الصبابة أسما  
كأنك لم تشهدْ وداعَ مُفارقٍ ولم تر شعبي صاحبين تقطعا  
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسيلتا معا  
وليست عَشِيَّاتِ الحِمَى برواجع إليك ولكنْ خَلَّ عينيكَ تدمعا

فقال الكاهن لأبيه: إنه يشكو العشق لا غيره، وليس له دواء عندي، إنما  
دواؤه الرحلة حتى ينسى. فعاد به أبوه إلى الحى وأخذ رفاؤه يحثونه على  
الغزو والجهاد مع المحاربين فى بلاد إيران، فأقام مقاما سيرا، ثم رحل مع  
جماعة كانوا راحلين نحو العراق، وألم بببيت ربا، فخرجت إليه تودعه،  
فذكرا ما كان بينهما وأنشد:

أما وجمالِ الله لو تذكيريني كذكريك ما كفكفتُ للعين مدمعا  
فقالنت بلى والله ذكرا لو إنه يُصَبُّ على صَمِّ الصِّفا لتصدعا

وتركها وهو ينشج آحرَ نشيج، ولما بعد عن الحى أظهر تولها شديدا، فصبره  
رفاقه، وأخذوا يعزونه عنها، وهو يلتفت إلى ديارها ويقول:

ولما رأيت «البشر» قد حال بيننا وجالت بناتُ الشوق في الصِّدْرُ نَزَعَا  
تلفتُ نحو الحسى حتى وجدتنى وَجَعْتُ من الإصغاء لَيْتاً وَأَخَذَعَا  
وجدتُ الرفقة في سيرها، وهو مسلوب العقل ذاهل القلب، لا يتحدث  
إلا عن صاحبه وذكرياته وما كان من قساوة عمه، وما يزال ينشد:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

وما زالوا جادين في المسير حتى وصلوا إلى نهر الفرات، فقالوا له: لقد  
خرجنا من جزيرتنا، فدع صاحبك وانظر إلى نفسك فإنها لو كانت صادقة  
الود ما تزوجت ولا اختارت عليك، فالتفت إلى ورائه وإلى الرياح الوافدة من  
ديار ريا، وقال:

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضكم أتتنا برياًكم فطاب هبوبها  
أتتنا بريح المسك خالط عنبراً وريح الخزامى باكرتها جنوبها

فظلوا يواسونه، ويقولون له إنك خرجت إلى الجهاد في سبيل الله كي  
تنسأها، وحرام عليك أن تعود إلى ذكرها لما أنت قادم عليه من لقاء الأعداء  
ومنازلة الفرسان.

### الوفاة في طبرستان

ولما التقى الجمعان أبلى في الحرب بلاء عظيماً ودل على فروسية وشجاعة  
باهرة، كانت مضرب الأمثال من الأبطال والشجعان. وكان ما يزال رفقاًؤه  
يلحظون عليه تولعه برياً، فكانوا يسألونه، وهو عنهم ذاهل القلب، غافل  
عما يقولون.

وبينما هو ينازل قرناً من الأعداء تذكر ريا، فكف عن نزاله، وحاول أن  
يعود ليرجع إليها، ولكن القرن عاجله بطعنة نافذة، فخر على الأرض،

فأسرع إليه رفيق فحمله، فإذا هو يتحرك ولا يتكلم، وأصغى إليه رفيقه، فوجده يتمتم بصوت خفى:

تَعَزَّ بِصَبْرٍ لَا وَجْدُكَ لَا تَرَى      نَسَاءَ الْحِمَىٰ أُخْرَىٰ اللَّيَالِي الْغَوَابِرُ  
كَأَنَّ فَوَادِيَّ مِنْ تَذَكُّرِهِ الْحِمَىٰ      وَأَهْلَ الْجَمَىٰ يَهْفُو بِهِ رَيْشُ طَائِرٍ

وما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.

وحمل نعى الصمة إلى أهله، فخرجت ربا ونساء الحي يندبونه ويبكين فيه الشجاعة والعفة، وبكاه الرجال ورثوه طويلا. ولم تطل الأيام بربا، فقد ماتت حزنا عليه وغما.



## مالك وظريفة

### من أول نظرة

كان في بنى عذرة شاب حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف يسمى مالكا، خرج يوما للصيد، ومر في طريقه على عين ماء، لبعض العشائر من قبيلته، فوجد طائفة من النساء؛ اجتمعن عليها؛ يغترفن بعض الماء، ومن دونهن فتاة قد انفردت تمشط شعرها، وقد انسدل على وجهها، كأنه البدر يلمع في الظلام، فحين أبصرها وقعت في قلبه، ولم يكد يحدثها وتحديثه حتى سقط مغشيا عليه، فقامت إليه، فرشت الماء على وجهه، فلما أفاق وأبصرها تسكب عليه الماء كي يفيق، قال : وهل مقتول يداويه قاتله، وأنشد يحكى حاله ومآله :

خرجتُ أصيدُ الوحشَ صادفتُ قانصاً من الرِّيمِ صادتنى سريعاً حباثُله  
فلمّا رماني بالنِّبالِ مُسارعاً رِقاني، وهل مَيّتُ يداويه قاتله  
فقالَتْ له : كُفَيْت ما تشكو، وحادثته حتى ثابت إليه نفسه، وقد رُقْتُ  
له، ثم قامت فانطلقت مع النسوة وهى تنظر إليه، فأنشد باكياً :

وما الناس إلا العاشقون زوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشقُ

### مرض طويل

وعاد الفتى إلى حيه، ولم يعد يخرج للصيد كعادته، ومرض ولزم الفراش، فأقسمت عليه أمه أن يخبرها بحقيقة علته، فكان يخجل وينعقد لسانه، ولما ألحت عليه أنشد متأثراً :

يا علّة طالث على دَنفٍ يشكو الفراقَ وقلّة الصَّبْرِ  
 ما كنت أعلم أننى كلفٌ حتى تَلِفْتُ وكنت لا أدرى  
 والبدر يشهدُ أننى هائمٌ مُغرَى بحبِّ شبيهة البَدْرِ

وقصّ عليها قصة رؤيته للفتاة، فسألت عنها حتى عرفت أنها ظريفة بنت صفوان، فمضت إليها وأخبرتها بما آل إليه حاله، وعرضت عليها أن تزوره، فقالت لها: إنى لا أستطيع والناس حولي، كلهم واش حسود، فقالت لها: إنما رجوت بزيارتك أن يبلّ من مرضه، فأبت أن تجيبها إلى ما أرادت، وقصت خصلة من شعرها، وقالت لها: أعطه هذه الخصلة، لعله إذا أسك بها زال عنه ما يجده وفارقه سقمه. فرجعت أمه إليه، وناولته خصلة الشعر فأخذ يقبلها ورجعت إليه نفسه قليلا قليلا.

## مجاولات

وكان مالك كلما اشتد عليه الوجد جعل على وجهه خصلة الشعر التي بعثت ظريفة بها إليه مع أمه، فيستريح بعض الشيء. ولما كان في بعض أيامه وقد خرج ليستنشق الهواء سقطت منه الخصلة، فأظلمت الدنيا في عينيه، وعاوده السقم والضنا وأخذ يبكي ويردد:

أكفكفُ جفنَ العين والدمعُ سافح كسبه غديرٍ فوق خدّي جاريا  
 فيا لبيت شعري ذا البكاءِ إلى متى وحتّى متى ذا الحزن والجسم باليا

وأخذ يلم بدارها لعله يراها في إحدى غدواتها أو روحاتها، ورآها يوما تسير مع بعض النساء من أهلها، فخالسته وخالسها النظر. ولم يستطيعا الكلام، ورأى دمة تترقق في عينيها، فأنشد:

جلست لها كيما تمرّ لعننى أخالسهما التسليم إن لم تسلّم  
 فلما رأتنى والوشاة تحدّرت مدامعها خوفاً ولم تتكلم

وتعرض لها مرارا بعد ذلك، فلم يرها، فعمد إلى غلام من الحي، فمناه  
الجزاء إن هو أنفذ له ما يريد منه، وسأله الغلام ماذا تريد؟ فقال له: أريد  
منك أن تحاذي دار صفوان وتنشد هذه الأبيات:

مريضٌ بأفناء البيوت مطرَحٌ أبى ما به من لاعج الشوق يبرحُ  
وليس دواء الداء إلا بخيلةٌ أضرَّ بنا فيهما غرامٌ مبرحُ  
إذا ما سألناها وصالا تُنيله فصمُّ الصفا منها بذلك أسمح

وجعل يكررها عليه حتى حفظها. وحاذى دار صفوان، ورفع صوته بالأبيات،  
فعرفت ظريفة قائلها، وأنشدت تجيبه:

رعى الله من هام الفؤاد بحبِّه ومن كدت من شوقٍ إليه أطيُرُ  
لئن كثرت بالقلب أتراحُ لوعةٍ فإن الوشاة الحاضرين كثير  
وإن لم أزر بالجسم رهبة معشرٍ فبالقلب آتى نحوكم فأزور

ورجع الصبي إلى مالك فأنشدته أبياتها، فسقط مغشيا عليه ساعة، ثم أفاق  
وهو يردد إهمال عشيرته وأبناء عمومته له قائلا:

أظن هوى الخود الغريرة قاتلي فيا ليت شعري ما بنو العمِّ صنُّع  
أراكم - وللرحمن دز صنيعكم - تركتم دمي هذراً وخاب المضيع

## زواج ظريفة

أضنى الحب مالكا وبراد، فتوسل إلى بعض أقاربه أن يخطبوا له ظريفة  
من أبيها، وذهبوا إليه يخطبونها منه، فقال: إنى لا أزوجها له بعد أن  
فضحها بشعره، وردهم أقبح رد، ثم زوجها - على كره منها - لفتى من  
فتيان العشيرة تقدم إليها. ولما عرف مالك خبير زواجها أخذ يبكي بكاء مرا،  
فكان بنو عمه وأقرباؤه يواسونه ويعزوننه، فكان يقول:

دعوني لما بي وانهضوا فى رعاية من الله قد أيقنتُ أن لست باقيا  
 واذ قد دنا موتى وحانت منيَّتى وقد جلبتُ عيني إلى الدواهيما  
 أموت بشوق فى فؤاد مبرحُ فيا ويح نفسى من به مثل ما بيا  
 واشتدت به العلة ، حتى غدا كالخيال ، وفى يوم تتابع عليه الإغماء ،  
 وكان كلما أفاق من إغمائه ردد :

ليبكنى اليوم أهملُ الود والشَّفَقِ لم يبق من مهجتي إلا شفا رَمَقِ  
 اليوم آخرُ عهدى بالحياة فقد خلصتُ من رِبقة الأحزان والقلق  
 ولم يزل على ذلك حتى شهق شهقة فارق على إثرها الحياة. وعلمت ظريفة  
 بموته فى حبها ، فخرجت حتى انتهت إلى قبره فألقت نفسها عليه ، وهى  
 تبكى وتئنسُد :

اليوم أبكى لصبِّ شَفِّ مهجته طولُ السقام وأضنى جسمه الكمدُ  
 أعطُرُ قبرك أسرى لى النسيمُ به أم أنت حيثُ يناط السَّحر والكبد  
 ثم انثنت على صدرها وكبدها ، فحركها من معها ، فوجدوها ماتت ، فدفنوها  
 بجواره .



# ابن أبي عمارة الناسك وسلامة

سلامة

كانت سلامة مؤلدة من مولدات المدينة وبها نشأت، وكانت من أحسن النساء وجهاً وأتمهن عقلاً وأعذبهن حديثاً، قرأت القرآن وروت الأشعار، ثم تعلقت بالغناء، فتتلمذت فيه على معبد مغنى المدينة المشهور، فمهرت، وجلست للغناء مع أختها ربا في مجلس لهما بالمدينة، فكان الشعراء والناس يقصدون دارهما للسمع، ولم يبق بالمدينة شاعر إلا وشغقت قلبه حبا، وكان ممن أسرت لبُّه الأحوص، وفيها يقول في بعض أشعاره:

إذا أنت لم تعشقْ ولم تدر ما الهوى      فكن حجراً من يابس الصخر جَلَقدا  
وانى لأهواها وأهوى لقاءها      كما يشتهي الصادى الشراب المبردا

وكانت تصفى الود كل من يتعلق بها، كما كانت تكثر من الرحيل إلى مكة، موقدة في نفوس الناس هنا وهناك جذوة الإعجاب.

## الناسك المكي

وكان بمكة ناسك مشهور بالتقوى والعبادة والزهد في حطام الحياة، وكان من قراء الذكر الحكيم ورواة الحديث النبوي، ليس له شغل سوى النسك حتى لقبه أهل بلده بالقس؛ وهو عبد الرحمن بن أبي عمار الجشسي. وتصادف أن سمع غناء سلامة ذات يوم، فأظهر استحسانه وافتتانه به، ورآه مولاه أمام داره. وهو يرهف سمعه، فدعاه أن يدخله إليها فيسمع منها، غير أنه أبى عليه

مظهوراً تخرجها ، فقال له : فإني أقعدك في مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك . فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها . فلما طال سماعه نها قال له : هل لك في أن أخرجها إليك؟ فأبى . فلم يزل به حتى أخرجها . وأقعدها أمامه ، وهي تضرب على العود وتغنى . وسرعان ما فتن بها وفتنت به ، وشاع ذلك في الناس حتى غلب عليها لقبه . إذ سموها سلامة القس .

### غرام متصل

احتلَّ حب سلامة قلب القس ، وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، حتى لقد حوله إلى شاعر غزل ، ينظم الشعر ، ويلقى به صاحبه ضارعا متوسلا ، بل لقد تحول به إلى ما يشبه شباكا يحوكها من حولها ، وكلما تخلصت من خيوط تعثرت في أخرى ، فإذا هي تقع في حبه كما وقع في حبيها ، وإذا هي تردد عليه كل ما ينظمه فيها ، بل إنها لتتغنى به غناء عذبا ساحرا ، فتضفي على جمال شعره جمال صوتها ، وكأنما يتعانق العاشقان في الألفاظ والكلمات حين ينشد القس وتتغنى سلامة بمثل قوله :

سَألُومٌ هل لي منكمُ ناصرُ      أم هل لقلبي عنكمُ زاجرُ  
قد سمع الناسُ بوجودي بكم      فمنهمُ اللائمُ والعاذرُ

وقوله :

أهابك أن أقولَ بذلتُ نفسي      ولو أنسى أطيع القلبَ قالا  
حياءٌ منكِ حتى سألَ جسمي      وشقَّ عليَّ كتمانِي وطالِا

وطبيعي أن يذوق القس ويأخذ النحول والضمور ، لأنه لا يحب حبا عاديا ، فيه متاع وفرح وابتهاج ، وإنما يحب حبا طاهرا نقياً كله حرمان ، وكله ألم وضنى وشقاء ، وكله وجد ليس بعده وجد ، وكله غناء لا يشبهه غناء .

## بين النسك والهيام

أخذت سلامة تمعن في حب القس، وكلما ظننت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، تراءى لها في الخيال، وكأنه يحاول أن يبعدها عنه، ولكن ترى متى يتحول حب القس من هذه النار العاصفة بنفسه إلى شراب مصفى؟ وكانت تلقاه دائما ويتجاوزان أطراف الحديث، ومن حين إلى حين يقدم لها أشعاره من مثل قوله:

سَلَامٌ وَيَحْكُ هَلْ تَحْبِبِينَ مَنْ مَاتَا      أَوْ تَرْجِعِينَ عَلَى الْمَحْزُونِ مَا فَاتَا

وقوله:

أَلَا قَلٌّ لِهَذَا الْقَلْبِ هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ      وَهَلْ أَنْتَ عَنِ سَلَامَةَ الْيَوْمِ مُقْصِرٌ

ولا يعدو ما بينهما من كلام النقاء العذرى البرىء، وإنه لينصرف دائما عن هذا الجمال المغرى والحسن القاتن إلى النسك والعبادة، متخلصا من كل علاقة حسية وكل شائبة مادية.

## وداع إلى الأبد

ملك حب القس على سلامة قلبها ومشاعرها، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها أن تنعم بحبها وأن يضمها القس إلى صدره، ولكنها كانت كلما لقيته أكبرته وأجلته، وشعرت كأن حجبا صفيقة تقوم بينه وبينها، وإنها لهائمة به والهيام لا يعرف اليأس، وتخلو به ذات مساء، فتبادره بقولها: أنا والله أحبك، ويجيبها: وأنا والله أحبك. وتقول: وأنا أشتهى أن أعانقك وأقبلك، ويجيبها: وأنا أشتهى مثل ذلك، وتقول: فما يمنعك وإن الموضع لخال، ويجيبها: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فنغدو يوم

القيامة من الأخلاء الأعداء الذين ذكروهم الله عز وجل في قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. ويودعها وداع الأبد منشدا:

باتت تُعلننا وتحسب أننا في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامٌ  
حتى إذا سطع الصباح لناظرٍ فإذا بذلك بيننا أحلام

ويعود القس من أحلامه الكبيرة إلى ما كان عليه من الزهد والتقشف والعبادة والانصراف عن كل متاع في الحياة. وتشد سلامة رحلها إلى المدينة حاملة لعاشقها العابد بين الأسي والندم مودة صافية وإخلاصا لا حد له.



## ذو الرمة ومية

### أول الهوى

كان ذو الرمة من بنى عدى بن عبد مناة شاعرا من أظرف الناس حلو المنطق حسن الحديث، إذا كلمك لم تسأم كلامه. وكانت مية بنت سيد شريف من تميم يسمى طلبه بن قيس بن عاصم، وكانت خميرية اللون أقرب إلى القصر بدينة، إلا أن فى كلامها عذوبة.

وسبب تعلق ذى الرمة بها وأول ما كان من عشقه لها أن حَيَّه كان يقيم بالقرب من عشيرتها فى بعض نجعاته بشرقى الجزيرة العربية. وضلت لهم إبل فخرج هو وأخوه وابن عمه فى ابتغائها وطلبها، وبينما هم يسرون رأوا خيمة كبيرة قد علا عمودها وأطناها ومدت أوتادها وأسبابها، وكان قد أجهدهم العطش، فقال له أخوه وابن عمه: أنت الخيمة فاستسق لنا، فأخذ معه قربة صغيرة، وأتى الخيمة، فإذا عجوز جالسة فاستسقاها، فالتفتت وراءها وقالت: يا مى، فجاءتها فتاة تتمشط حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عناقيد النخل ووجهها يشف من خلاله، فقالت لها: اسقى الغلام، فجاءت بماء خلط بلبن فسقته. ثم أخذت تملأ له قربته، وتقول له عابثة: لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحدثاة سنك. ولها ذو الرمة بالنظر إليها، وأقبلت تصب الماء فى قربته والماء يذهب يمينا وشمالا، فأقبلت عليه العجوز وقالت له: يا غلام ألهمتك مى عما بعثك أهلك له، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا؟ فحجل ومضى لصاحبيه وقد علق بقلبه من حبها لآعج

عجز عن إطفائه ، وغرام كلُّ عن إخفائه . وأتى أخاه وابن عمه ، فحدثهما بها . وكيف تحرك لها قلبه ، وهما يضحكان منه ويعجبان من أمره .

### معاودة الزيارة

هام ذو الرمة بميِّمة ، وأصبح مستهيام القلب بها يذكرها في غدوه ورواحه ، ونا طال به هيامه عاد إلى زيارتها فكانت تلقاه وترحب به ، ويتحادثان أحاديث طويِّلة . وكانت دياره بعيدة عن ديارها . فكان يلومه بعض رفاقه على ما توجب له زيارتها من نصب ومشقة ، فكان يقول :

وكننت إذا ما جئت ميِّا أزورها      أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدها  
من الخِّقرات البيض ودَّ جليُّسها      إذا ما انقضت أحدثة لو تعيدها

وظل يعاود زيارتها . وهى تستقبله ، وتكرمه ، وتحدثه ، وقد عرفت أنها أسرت لُبَّه ، ولم تكن تنتبذ به مكانا قصيا . بل كانت تجلس إليه ومعها صواحبها يستمنن إلى حديثه وأشعاره .

### يزورها مع صديق

وكان لذى الرمة صديق يسمى عقبة بن مالك ، فجاءه يوما وقال له : لقد عرفت أن الرجال فى عشيرة مية قد انتجعوا فهل تسعدنى فى زيارة إليهما ، ترافقتى فيهما ، فأجابته إلى بغيته . وركبا حتى أتيا حيها ، وإذا بيتها خال قد خرج عنه أبوها وأهلها . فمالا إليهما ، ورآهما النساء ، فتجمعن نحوهما ونحو بيت مية . وخرجت إليهما كأنها البدر السافر ، وهتف النسوة : أنشدنا يا ذا الرمة من شعرك وغزلك ، فقال : أنشدهنَّ يا عقبة ، فنظر إليهن وأنشدهن من شعر ذى الرمة :

وقفتُ على ربع نِيَّةٍ ناقتى      فما زلت أبكى عنده وأخاطبُهُ  
وأستقيه حتى كَادَ مما أبْتُهُ      تكلمنى أحجارُهُ وملاعبُهُ

فلما بلغ قوله :

فَأَسْبَلْتُ الْعَيْنَانَ وَالْقَلْبُ كَاتِمٌ      بمغرورتي نَمْتُ عليه سواكِبُهُ  
هُوَ الْإِلْفُ قَدْ حَانَ الْفِرَاقُ وَلَمْ تَجُلْ      مجاوليها أسرارهُ ومعاتبهُ

قالت ظريفة من النساء: لكن اليوم فلتجل. ومضى رفيقه، فلما انتهى إلى قوله:

وقد حلفتُ بالله مِئَةً ما الذى      أحدثُها إلا لذى أنا كاذِبُهُ  
إذن فرمانى الله من حيث لا أرى      ولا زال فى دارى عدوُّ أحاربه

فَقَالَتِ الظَّرِيفَةُ لِمَى: قَتَلْتَهُ، قَتَلْتَ اللهُ، فَقَالَتْ مَى: خَفَ عَوَاقِبَ اللهُ يَا ذَا الرِّمَةِ. وَاسْتَرْسَلَ الرَّفِيقُ فِي القَصِيدَةِ إِلَى قول ذى الرمة:

إذا سرحتُ من حب مِئِ سوارِخُ      على القلب أَمَّتُهُ جميعا عوازيه

فَأَعَادَتِ الظَّرِيفَةُ عَلَى مَى قولها: قَتَلْتَهُ، قَتَلْتَهُ. فَقَالَتْ مَى: ما أصحه وهنيئاً له، فتنفس ذو الرمة نفساً جازاً. ومضى رفيقه فى القصيدة إلى قوله:

إذا نازعتك القول مِئَةً أو بدا      لك الوجه منها أو نَصَا الدرْعَ سالبُهُ  
فيا لك من خَدِّ أسيلٍ ومنطق      رخيمٍ وممزوجٍ تعلل شاربه

فَقَالَتِ الظَّرِيفَةُ ضاحكة: هذا القول قد تنازعه الشعراء والوجه قد بدا وقد واجهتها. فالتفتت إليها مية وقالت لها: ماذا تريدين؟ قاتلك الله. فقالت الظريفة ضاحكة: إن لكما لساناً، وغمزت صواحبها قائلة: قمن بنا، فقمين وقام معهن رفيقه. ووقف بحيث يراهما، فجعل ذو الرمة يشكو لها وجده، وهى تقول له: كذبت: لست صادقا فيما تقول، وذرفت عيناه بالدموع، وأنشد:

ولما شكوت الحب كيما تُثيبني      بوجدتي قالت إنما أنت تمزجُ  
بعاداً وإذلاً على وقد رأيت      ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرجُ  
لئن كانت الدنيا على كما أرى      تباريح من ذكراك فانسوت أروجُ

ثم انفجر في البكاء، فتساقطت قطراته على خديه كأنها حبال توشك أن  
تخنقه واستمر في نشيده:

إذا خطرث من ذكر ميَّة خطرَّة      على القلب كادت في فؤادي تجرُجُ  
هي البرء والأسقام والهَمُّ والمنى      موت الهوى في القلب منى المبرجُ  
تصرَّف أهواء القلوب ولا أرى      نصيبك من قلبي لغيرك يمنح  
وبعض الهوى بالهجر يمحي فينمحي      وحبك عندي يستجدُّ ويربح

فقال: كفى كفى، ورقت له، ودخلت خباءها، وجاءته بقارورة طيب  
وقلادة، فأحدثهما إليه ذكرى زيارته وشعره. وودعها ومضى إلى رفيقه، فركبا  
بعيرهما، وعادا إلى حيهما وهو ينشد:

لعمرك إنى يوم جرَّعَاء مالك      لذو عيرة كلاً تفيض وتخنقُ  
وإنسان عيني يحسر الماء تارةً      فيبدو وتاراتٍ يجمّ فيغرقُ

### زواج ميَّة

كان أبو ميَّة من أشرف العرب، فكان ذو الرمة يأتسأ من خطبتها،  
وتقدم إليها فتى موسر من عشيرتها فرزقت إليه، ونقلت إلى حيه. ومر ذو  
الرمة مع صاحبين له بمنزلها التي كان يلقاها فيها وقد خرجت عنها.  
فقال يودع الآثار:

ألا فاسلمى يا دار منى على البلى      ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

ثم نزل عن ناقته وأقبل على بعض المواضع يبكي فيها ويقبلها وقد وجد وجددا شديدا، فنزل إليه صاحبه يواسيانه ويقولان له: لقد تزوجت وأحرى بك أن تنساها، وكيف تفكر فيها ودونها من يحرسها ولن تستطيع الوصول إليها، فأنشد يحكى قولهما:

أما أنت عن ذكراك ميعة مُقَصِّرٌ      ولا أنت ناسى العهد منها فتذكرُ  
تهيم بها ما تستفيق ودونها      حجابٌ وأبوابٌ وبسترٌ مسترٌ

وبكى بكاء شديدا، فأخذا يعزيانه ويقولان له: أمسك نفسك، فقال: إننى جلد وإن كان منى ما تريان، وانصرفوا.

### الإمام بدار مية

وألم ذو الرمة بدار مية في ليلة ظلماء، فأضافه زوجها، وطمع ذو الرمة فى ألا يعرفه، فيدخله بيته فيراها ويكلمها. ولكن الزوج لم يلبث أن عرفه، فلم يدخله البيت وأخرج إليه طعامه وتركه بالعرءاء، فلما كان فى جوف الليل تغنى:

خليلىَّ عُدًّا حاجتى من هواكما      من ذا يواسى النفسَ إلا خَليِليها  
ألفًا بمىَّ قبل أن تطرح النوى      بنا مَطْرَحًا أو قبل بَيْنَ يزيِليها  
وإن لم يكن إلا تعلل ساعةٍ      قليلا فإنى نافِعٌ لى قليِليها

ففظنت إليه مية. وأرسلت إليه جارية لها تسأله ألا يتغنى حتى لا يتعرض له زوجها بسوء، ولكنه لم يستمع إلى قول الجارية، وتغنى بصوت عال:

أراجعةٌ يا مِىُّ أيَّامنا الأنى      بذى الأثَلِّ أم لا ما لهن رجوع

فغضب زوجها، وقال لها: قومي فصيحى بهذا الرجل وسُبيهِ، وقولى له: أى الأيام كانت لى معك بذى الأثَلِّ، فقالت له: سبحان الله إنه ضيف، وما كل

ما يتّوله الشعراء صحيح ، فانتنضى زوجها السيف وقال : والله لأضربنك به حتى آتى عليك أو تقولى له ما قلت لك ، فصاحت به كما أمرها زوجها ، فنهض على راحلته ، فركبها وانصرف عنها مغضبا ، وهو يقول :

أيا نئى قد أشمتت بى ويحك العدا وقطعت حبالا كان يامى باقيا

### موت ذى الرمة

وظل ذو الرمة وفيما نية يتغنى باسمها وبالمنازل التى كان يراها فيها ، ويبكى بكاء حارا يذرف فيه الدمع مدرارا . ومرض حتى أسقمه المرض وأضناه ، وسرعان ما حضرته الوفاة ، فقال لأهله : لا تدفنونى فى الوهاد ولكن ادفنونى فى كئبان مرتفعة واغرسوا حول قبرى بعض الأشجار . فلما مات صلوا عليه ، ثم حملوه وحملوا معه بعض الأشجار ، وحفروا له قبرا فى كئيب عال دفنوه فيه ، ودفنوه بذلك الشجر . وبكاه الحى وندبته النساء طويلا .



## العبّاس بن الأحنف وقوْز

### أول الهوى

كان العباس بن الأحنف شاعرا بغداديا غزّلا حلوا مقبولا غزير الفكر عذب الحديث، محبوبا من هرون الرشيد ووزرائه وقواده، وكان محمد بن المنصور ابن زياد الملقب بفتى العسكر يألفه ويعجب به، فكان يدعوّه إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرون، وكانت من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروى الشعر وأخبار العرب، فكان محمّد يحضرها مجالسه؛ فوقعت في قلب العباس بن الأحنف، وعرفت موضعها من قلبه. إذ كان يطيل النظر إليها، وكان إذا سأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها، وكان يَكْنِيها باسم ظلوم، لما كانت تصد عنه وتنفر منه وسأله يوما محمد ماذا أحدثت؟ فقال:

قالت ظلومُ سَعيّة الظلم      ما لى رأيتك ناحل الجسم  
يا مَنْ رمى قلبى فأقصده      أنت العليم بموضع السهم

فأطراه محمد، وأظهر إعجابه واستحسانه، وقال له: زدنا يا عباس من غزلك الرقيق، ونظر إلى فوز فرآها تتكلف الإعراض والازورار عنه، فأنشد:

ألا تعجبون كما أعجبُ      حبيبٌ يُسيئُ ولا أعتبُ  
وأبغى رضاه على سخطه      فيأبى على ويستصعب  
فياليت حظى إذا ما أسأ      ت أنك ترضى ولا تغضب

فقال محمد بن المنصور: والله إن معشوقتك لمقصرة، ولو كنت في موضعك لقاتلت إعراضها بإعراض، فقال على البديهة:

تحمّل عظيم الذنب ممن تحبّه      وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالمُ  
فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى      يفارقك من تهوى وأنفك راغم

فطرب محمد وقال للعباس: صدقت، وانتهى المجلس، فقام، وانصرف.

### متابعة الشكوى

وفي مجلس ثانٍ لمحمد بن المنصور أقبل العباس فسلم، وبدت فوز، فحقق قلبه، وجلست دون أن تحببته، وأخذ العباس في الحديث، فسأله محمد، ما شأن صاحبك وهل وصلت؟ فأجاب:

والله لو أن القلوب كقلبها      ما رقّ للولد الضعيف الوالدُ

وقال محمد: ترى من هي التي فتنتك وما مقدار حسنهما؟ صفها لنا وأوجز، فقال على الفور:

لقد ملثت ماء الشباب كأنهما      قضيبُ من الرِّيحان رَيَّانُ أخضرُ

وخجلت فوز، ولم يلتفت محمد ولا فطن. وقال: مسكين أنت يا عباس، ولو عرفتها لكلمتها في أمرك، ومن يعرف ربما كانت تصد عنك عتابا لا مللا ولا كرها، فأنشد:

لو كنت عاتبةً لسكن روعتي      أملى رضاك وزرثُ غير مراقبِ  
لكن مللت فلم تكن لي حيلةً      صدُّ الملول خلافُ صدِّ العاتبِ

فقالت فوز: يا عباس ظن خيرا فربما كانت لا تستطيع لقاءك ولا أن تبادلك حبا بحب، فقال على الفور:

تمنئى رجالاً ما أحببوا وإنما تمنيت أن أشكو إليها وتسمعا  
أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيرها قد استعذبا طولَ الهوى وتمتعا  
فقالت: أبلغك الله أمنيته يا عباس. وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله.

## أرق على أرق

أصبح العباس كلفا بفوز لا يفارق مجلسها ومجلس سيدها، واشتد به كلفه  
فكان يبيت الليل مسهدا لا يغمض له جفن وطال عليه ذلك فأنشد:

قفقا خبرانى أيها الرجلان عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى  
وكيف يكون النومُ أو كيف طعمُهُ صيفا النومَ لى إن كنتما تصفان

وشكا إلى بعض أصحابه أنه لا ينام، فتغامزوا عليه، وقالوا: محب  
هائم، دع الحب يأتك النوم، وأمسى لا يلم به النعاس، فأنشد:

لما رأيت الليل سدَّ طريقه عنى وعدبني الظلامُ الراكدُ  
والنجمُ فى كبد السماء كأنه أعمى تحير ما ديه قائدُ  
ناديت مَنْ طرد الرُقاد بصدّه عما أعالج وهو خلُو هاجدُ  
ياذا الذى صدع الفؤاد بهجره أنت البلاء طريفه والتالدُ  
ألقيت بين جفون عيني حرقَةً فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقدُ

وأرسل إليها هذه الأبيات فى رقعة وذيلها بقوله

وسعى بىا ناسُ فقالوا إنىا لىا التى تشقى بها وتكابدُ  
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إنى ليعجبني المحب الجاحدُ

ولما وقفت على الرقعة قالت للرسول: لقد بلغنى عنه أشعاراً يتغزل فيها  
باسمى، كأنه يريد أن يفضحنى عند سيدى، وإننى لا أستطيع أن ألقاه بعد  
تشهيره بى، ولما عرف جوابها أنشد:

لعمرك ما يستريح المحسبُ حتى يبوح بأسراره  
وقد يكتُم المرءُ أسرارَه فتظهر في بعض أشعاره

## لقاء

ودخل العباس يوما على محمد بن المنصور وفوز بين يديه ومعه حضور  
كثيرون، فقال له محمد: أنشد بعض ما قلت من غزلك يا عباس فإن غزلك  
رقيق يأخذ بجماع القلوب، فأنشد:

أتأذنون لصبِّ في زيارتكُم فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ  
لا يضر السوءَ إن طال الجلوسُ به عَفُ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

فلم يبق أحد في المجلس إلا طرب، وتعجب من حسن ما يأتي به من معان.  
وقال له محمد: زدنا مما قلت، حيَّاك الله، فقال:

راجعُ أحبِّكَ الذين هجرتهم إن المُتيمِّمَ قَلَمَا يتجنَّبُ  
إن التَّجنُّبُ إن تطاول منكما دَبُّ السلو له فعزُّ المطلبِ

فتبسمت له فوز، وقال السامعون: أحسنت والله درك، وماذا بعد، فأنشد:

الحب أول ما يكون لجاجَةً تأتي به وتسوقه الأقدارُ  
حتى إذا سلك الفتى لجهِّ الهوى جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ  
نزف البكاء دموع عينك فاستعزَّ عينا لغيرك دمعها مدرارُ  
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرايتَ عينا للبكاء تُعارُ

فلم يبق أحد من الحاضرين إلا قال له: أنا أعيرك عيني، حاطك الله  
وحفظك، ونظر إلى فوز فغضت طرفها وخجلت، فأنشد:

قلبي إلى ما ضرني داعي يُكثر أسقامي وأوجاعي  
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

أسلمنى للحبِّ أشياعى لما سعى بى عندها الساعى  
إن دام لى هجرك يا مالكى أو شك أن ينعمائى الناعى

## زيارة

رقت فوز للعباس فواعدته فى ليلة كان سيدها فيها غائبا، ولم يكد يصدق  
عينيه حين رآها، فوثب إليها وسلم عليها، وجلست فقالت له :

لا بد للعاشق من وقفةٍ تكون بين الوصل والصَّرم  
يعتب أحيانا وفى عتبه إظهار ما يخفى من السُّقم  
إشفاقه داع إلى ظنه وظنه داع إلى الظلم  
حتى إذا ما مضه هجره راجع من يهوى على رغم

ثم أردفت: إنى إنما صددت عنك، لما كنت أرى من عبرات تترقرق فى عينك،  
وأخشى أن يعرف أمرك محمد بن المنصور، فيمنعك من لقائى، فأنشد:

لا جَزَى اللهُ دمعَ عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى  
نمّ دمعى فليس يكتم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان  
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

ومكثت قليلا، ثم استأذنت فى الانصراف. فأذن لها على مضض وهو ينشد:

وإنى ليرضىنى قليلُ نوالكم وإن كنت لا أرضى لكم بقليل  
بحرمة ما قد كان بينى وبينكم من الوصل إلا عُدتُمُ بجميل

## مكاتبة

وغابت عنه مدة لم يرها فيها، فهاج بلباله. وزادت به أشجانه، فكتب  
إليها رقعة، يقول فيها:

نام من أهدى لى الأرقا      مستريحا زادنى قلقا  
لو يبيت الناس كلهم      بسهادى بيض الحدقا  
كان لى قلب أعيش به      فاصطلى بالحب فاحترقا  
أنا لم أرزق مودتكم      إنما للعبد ما رزقا

فلما قرأت الرسالة قالت للرسول: لقد ظلمنا العباس، وإنى لزائرته، وضربت موعدا للقاءه.

### موعد

ظل العباس ينتظر فوزا، وكانت قد تأخرت بعض الوقت، فداخلته الوساوس وهجمت عليه الهواجس وظن أنها لن توافيه، فبكى وأنشد:

أحرم منكم بما أقول وقد      نال به العاشقون من عشقوا  
صرت كأنى ذبالة نصبت      تضيئ للناس وهى تحترق

ولم تمض إلا برهة يسيرة حتى أقبلت، فقالت له: معذرة إنى تأخرت لشغل عرض، ولم يكن لى طاقة بتأخيره. ثم أقبلت عليه، وقالت له: أنشدنى بربك آخر ما نظمته فى، فأنشد:

إن قال لم يفعل وإن سبيل لم      يبذل وإن عوتب لم يُعتب  
صب بعصيانى ولو قال لى      لا تشرب البارء لم أشرب  
إليك أشكور رب ما حل بى      من صد هذا الذنب المعصّب

فقالت لا عليك، والله ما أتأخر عنك من صد ولا هجر، إنما هو الشغل يحول بينى وبين لقاك وكلامك الحبيب إلى نفسى، فقال:

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا      الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

فقلت: أظنني أملك أمرى، إذن ما فارقتك، ولا وجدت في نفسي هذا  
النقص لعدم لقياك، وتشاكيا الهوى ثم قامت، فمضت.

### مرض فوز

وجّه العباس رسولا إلى فوز، فعاد فأخبره أنها تجد صداعا وأنه رآها معصوبة  
الرأس، فأخذها الوجد بها، وتمنى لو نقل الداء إلى رأسه فداء لها وأنشد:

عصبتُ رأسها فليت صداعا      قد شكته إلى كان براسي  
ثم لا تشتكى وكان لها الأجرُ      وكنْتُ السقامَ عنها أقاسي  
ذاك حتى يقول لي من رأسي      هكذا يفعل المحبُّ المواسي

وبرئت مما ألم بها من مرض، ثم نكست وبلغه ما صارت إليه من النكس فقال:

إن التي هامت بها النفس      عاودها من عارضِ نكسُ  
كانت إذا ما جاءها المُبتلى      أبرأه من كَفِّها اللمسُ  
وا بأبى الوجه المليح الذي      قد عشقته الجن والإنس  
إن تكن الحمى أضرت به      فربما تنكسفُ الشمسُ

### شفاعة

وكان في خلق العباس شدة ف ضرب غلاما له وحلف لبييعته، فمضى  
الغلام إلى فوز، فاستشفع بها إليه، فكتبت إليه فيه. فقال:

يا من أتانا بالشفاعاتِ      من عند مَنْ فيه لجاجاتي  
إن كنت مولاك فإن التي      قد شفعت فيك مولاتي  
إرسالها فيك إلينا لنا      كرامةٌ فوق الكرامات

ورضى عنه ووصله وأعتقه.

## لقاء ووداع

مضت مدة طويلة لا تلتقى فيها فوز بعباس، فقلق وجزع وظن أنها قد هجرته، فكتب إليها رسالة يقول فيها:

يا فوز يا منية عباسٍ واحربا من قلبك القاسي  
أسأت أن أحسنْتُ ظنِّي بكم والحزم سوء الظن بالناس  
يقلقني الشوق فآتيكم والقلب مملوء من الياس

فقال للرسول: إن الفرصة لا تواتيني، فعاد إليه وأخبره بما قالت، فكتب رسالة أخرى، يتفجع فيها على وصلها ويقول:

سلبتني من السرور ثيابا وكسنتني من الهموم ثيابا  
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا  
عذبتني بكل شيء سوى الصدِّ فما ذقت كالصدود عذابا

ولما قرأت الأبيات رقت له وقالت للرسول: إنني زائرة له في يوم كذا. وجاءت، فوثب إليها وجثا عند قدميها، يشكو تباريح حبه، فأمسكت برأسه ووضعت يدها على صدره، وقالت: ليتني كنت لك، وبكت وبكى معها وأنشد:

ما أنس لا أنس يمناها معطفة على فؤادي ويسراها على راسي  
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس  
أو ليته كان لي خمرا وكننت له من ماء مُزِنٍ فكنا الدهر في كاس  
وأقبلت عليه، فقالت له إن سيدي قد عزم على الحج، وسيأخذني معه، فاستودعك الله، وقامت، فمضت لوجهها.

## فوز تحج

أخذ العباس يرقب خروج فوز لعله يراها وهى راحلة إلى حج بيت الله الحرام، ورأى راحلتها تعدو، وهى خارجة إليها فيكى وأنشد:

يا ربَّ رُدُّ علينا من كان أنساً وزيِّنا  
من لا نُسرُّ بعيشٍ حتى يكون لدينا

وغابت فوز عن عينيه، فجزع جزعا شديدا ومضى يسأل عن حجاج آخرين يحملهم إليها رسالة له، ووجد بعض من يعرفه معتما على أداء الفريضة، فكتب إليها:

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| أزيِّن نساء العالمين أجيبى   | دعاء مشوقٍ بالعراق غريب      |
| كثبت كتابى ما أقيم حروفه     | لشدة إغوالى وطول نحيبى       |
| أخط وأمحو ما أخط بعبرة       | تسح على القرطاس سح ذنوب      |
| أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى | لطول نحولى بعدكم وشحوبى      |
| وأنت من الدنيا نصيبى فإن أمت | فليتك من حور الجنان نصيبى    |
| وإنى لأستهدى الرياح سلامكم   | إذا أقبلت من نحوكم بهبوب     |
| وأسألها حمل السلام إليكم     | فإن هى يوما بلغت فأجيبى      |
| أرى البين يشكوه المحبون كلهم | فيا ربَّ قَرَّب دَار كل حبيب |

وقدمت فوز من الحج وعلم عباس فأخذ ينشد فرحا مسرورا:

ألا قد قدمت فوز فقرت عين عباس  
من بشرنى البشرى على العينين والراس

## مغاضبة

ظل عباس ينتظر من فوز موعداً تضربه له بعد عودتها من الحج، ولكنها كانت انصرفت عنه إلى بعض شباب الجند، فكتب إليها:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

فلم ترد عليه ولا منته وعدا. وطال جفاؤها له، وعرف أنها أحببت سواه، فعزم على تركها، ثم راجعته نفسه، فكتب إليها يتوسل ويقول: الإدلال يدعو إلى الإملا، ورب حب انقلب إلى كره وهجر، وقال:

ما أرانى إلا سأمجر من ليس يرانى أقوى على الهجران  
قد حدا بى إلى الجفاء وفانى ما أضرَّ الوفاء بالإنسان

فقال للرسول: إنه تغير لما يسمع من قول الوشاة، وإنه يذكرني بالسوء وأنى أحببت فتى من فتیان الجند، وهذا شأنى وحدى، فإن أحب أن يختلف إلى مجلس سيدى فليفعل، فلما سمع ذلك بكى وكتب إليها:

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| كتبت تلوم وتستردُّ مودتى | وتقول لست لنا كعهد العاهد |
| فأجبتها ودموع عيني جمَّة | تجرى على الخدين غير جوامد |
| يا فوز لم أهجركم للالة   | منى ولا لمقال واش حاسد    |
| لكننى جرئتكم فوجدتكم     | لا تصبرون على طعام واحد   |

وتمادى بينهما المهجر.

## موت العباس

وظل العباس يندب حبه حتى أضناه، فخرج مع غلام له إلى بعض الرياض، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه وهو متهاك ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنة مفردا يبكي على شجته  
كلما جد البكاء به دبّت الأسقام في بدنه

ثم أغمى عليه ، فأقبل طائر فوق علي شجرة ، وجعل يغرد ففتح عينيه ، ثم  
أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً طائرٌ يبكي على فتنه  
شقه ما شفني فبكي كلنا يبكي على سكنه

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه ، فحمله غلامه إلى منزله ، وخرج  
الجوارى يبكين عليه ويندبنه وبكاه أصدقاؤه ورفاقه أحراراً بكاءً .



# المحتويات

| الصفحة | الموضوع                                 |
|--------|---|
| ٥      | تقديم                                   |
| ٧      | الحب                                    |
| ١٩     | الحب العذرى                             |
| ٢٩     | مَجْنُونٌ لَيْلَى                       |
| ٥١     | جَمِيلٌ وَبُئِينَةٌ                     |
| ٧٣     | فَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ وَلُبْنَى           |
| ٩٥     | عُرْوَةُ بْنُ جِزَامٍ وَعُقْرَاءُ       |
| ١٠٣    | كُثَيْرٌ وَعَزَّةٌ                      |
| ١١١    | تَوْبَةُ وَلَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ      |
| ١١٩    | الصَّمَّةُ وَرَيًّا                     |
| ١٢٣    | مَالِكٌ وَطَرِيفَةٌ                     |
| ١٢٧    | ابن أبي عَمَّارِ النَّاسِكِ وَسَلَامَةٌ |
| ١٣١    | ذو الرُّمَّةِ وَمِيَّةٌ                 |
| ١٣٧    | العَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَقُوزٌ     |